أحمد الصاوي محمد

اقرأ

عذراء الأندلس

أحمد الصاوى محمد

عذراء الأندلس

اقرأ ١٢١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢١ - فبراير ١٩٥٣



١

لا ينفض عيد الكرنفال فى أسبانيا ، كما ينفضّ عندنا ، فى الساعة الثامنة من صباح يوم « أربعاء الرماد » . . . فإن هذا الرماد الذى يذرّه رجال الدين على رؤوس العابدين ، تذكيراً لهم بأنهم من التراب ، وإلى التراب يعودون ، لا ينشر رائحة القبور على مسرات « أشبيلية » الشائقة إلا مدى أربعة أيام ، ثم تعود إلى عيد المرافع الحياة . . .

فكنت ترى عامة الشعب وقد غيروا أزياءهم ، والصبية متألبين فى جماعات ، صارخين ، قد اتخذت ملابسهم من الخرق المهلهلة ، اختلفت ألوانها بين حمراء وخضراء ، وزرقاء وصفراء . . . كانت من قبل كلات وستائر وثياباً نسوية ، فأصبحت تهفهف فى الضحى على أجسامهم الصغيرة الحمرية . . .

واجتمع الأولاد من كل صوب وحدب ، وكوّنوا فرقاً ترتفع جلبتها ، وراحوا يهزون فى أيديهم عصيهم المنتهية بقطع من النسيج كالكرابيج ، ويقتحمون الأزقة متنكرين بنُقُب ينبعث من كل ثقبين فيها سرور العينين ، صائحين فى

الرجال ، هاتفين للنساء . . فيفسح الناس الطريق لهذه الغزوة المنكرة المتنكرة . . .

وتزاحمت فى النوافذ والمشارف و « المشرفيّات » الرؤوس السمراء ، وأقبلت بنات الضواحى فى ذلك اليوم على مدينة « أشبيلية » يحنين تحت الضياء رؤوسهن المثقلة بالشعر الغزير . . . فتنصب أوراق « الكونفتّى » متناثرة فوقها كالبرَد ، بينا المراوح فى أيديهن تلقى ظلها السماوى على الخدود . . .

صيحات . . . نداءات . . . ضحكات تدوى أو تعوى فى الأزقة . . .

إنه ضجيج بضعة ألوف من الناس فى عيد المرافع الأندلسى ، وإن دونه ضجيج باريس كلها . . .

وكان اليوم هو الثالث والعشرين من شهر فبراير عام ١٨٩٦ ، وكان يوم أحد . . .

وكان « أندريه ستيڤانول » يحس فى نفسه شيئاً من الحسرة واللهفة لقرب انفضاض العيد . . . لأن هذا الأسبوع ، الذى هو أسبوع الغرام خاصة ، لم يتمخض له عن حادث طريف من حوادث الحب ، على كثرة ما تردد طويلا على أسبانيا ، وعرف فيها كيف تبرم وتنقض ، فى سرعة وصراحة ، أحكام الهوى ، على هذه الأرض التى ما زالت بكراً . . .

وساءه سوء حظه ، وساءه أن الفرص لم تسنح . . .

لم يكن ما وقع له يتجاوز معركة دارت بينه وبين فتاة بثعابين الورق من الطريق إلى النافذة ، فنزلت تجرى بعد أن أشارت إليه ، وقدمت له طاقة صغيرة من الزهور الحمراء ، وقدمت له أيضاً عبارة صغيرة فى لهجة أندلسية :

« شكراً جزيلا أيها السيد »

ثم صعدت مسرعة ! . . .

هذا إلى أن « أندريه » قد خابت آماله فيها ، لما استبانه عن قرب من ملامحها ، فوضع الزهرة فى عروة صدره ، دون أن يضع المرأة فى ذاكرته . . .

وعاد يومه فبدا له أشد فراغاً . . .

* * *

دقت الساعة الرابعة ، أعلنتها عشرون ساعة حائط كبيرة مثبتة فى أعالى البيوت ، فاخترق « أندريه » ممر « ردريجو » حتى وصل إلى الرصفة ذات الأشجار الباسقة الممتدة على طول نهر « الوادى الكبير » المزدحم بالسفن ، حيث كان أروع مظهر لعيد الكرنفال . . .

لم تكن الطبقة الموسرة فى « أشبيلية » من وفرة الغنى بحيث تتناول دائماً ثلاث وجبات من الطعام فى اليوم ،

وكانت تؤثر الصيام على الحرمان من زخرف المظهر ، وقوامه عندها مركبة وجوادان مطهمان . . . نعم ، فقد كانت هذه المدينة الريفية الصغيرة تضم نحو خمسمائة وألف مركبة خاصة ، هى غالباً من طراز غير حديث ، وإن كان حديثاً بجمال الخيل . . هذا إلى ما يشغلها من وجوه نبيلة ، تحول دون السخر مما يحوطها

فاستطاع « أندريه ستيڤانول » ، بعد لأى ومشقة ، أن يشق له طريقاً فى غمار الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق الواسع المترب

وكان صياح الباعة الصغار يعلو كل صوت :

« بيض . . . بيض . . . »

فقد بدأت معركة البيض ! . . .

« بيض . . من يريد بيضاً ؟ ! . . . الدستة بقرشين ! . . »

وكان البيض فى أكوام مكدسة فى سلال من الخيزران الأصفر ، وقد فرّغ من بياضه وصفاره ، وملئ بأوراق « الكونفتى » ، ولصق بورق شفاف

وكان البيض يـُقذف بلا انقطاع ، ككرات التلاميذ ، كيفما اتفق ، على أية وجوه مرت بها المركبات المتثاقلة ! .

وقد وقف الرجال والنساء على مقاعد زرقاء يجاوبون الجمهور

المحتشد ، فى حين احتمى الغوانى جهدهن وراء المراوح الأنيقة
وبدأ « أندريه » يحشو جيوبه من هذه القذائف غير المؤذية ، ويقاتل بحمية وجذل . . .

كأن هذا فى الواقع عراكاً . . . ذلك أن البيض ، وإن لم يجرح ، كان يصيب دائماً بقوة قبلما ينفجر ويتساقط كالبرَد على ألوان شتى . . .

ولم يلبث « أندريه » أن فطن إلى أنه يقذف البيض بحدة زائدة ، حتى لقد شطر مروحة رقيقة من الصدف شطرين . . .

لكن . . . فيم الظهور ، فى مثل هذا العراك الناشب ، بمروحة لا تُحمل إلا فى الحفلات الراقصة ؟! هذا من قبيل وضع الشىء فى غير موضعه ! . . .

ومضى غير مكترث ، لا يلوى على شىء . . .

ومرت المركبات ، مركبات النساء ، ومركبات العشاق ، والعائلات ، والأولاد ، والأصحاب . . . و « أندريه » ينظر إلى هذا الشعب المرح يمر أمامه فى موكب من الضحك الرنان ، تحت شمس الربيع الباكرة . . .

وكم من مرة وقعت عيناه على عيون فاتنة . . . ولم تكن بنات « أشبيلية » باللواتى يغضين أو يغضضن من أبصارهن . . . بل إنهن ليتقبّلن تحيات النظرات التى يستوقفنها طويلا . . .

واستغرق هذا العبث ساعة ، فكف « أندريه » أو كاد . .
وجعل يدير بيده آخر بيضة معه ، متردداً . . . وإذا به يرى على حين فجأة الشابة التى كسر مروحتها ، وكانت فتنة الناظرين . . .

وكانت قد تجردت من درعها الذى كان يحمى محياها البديع البسام ، وأضحت من كل ناحية عزلاء ، عرضة لمهاجمة الناس والمركبات المجاورة ، فاعتزمت القيام بدورها فى النضال . . . ووقفت فى عربتها ، تدفع عن نفسها ، وتهاجم غيرها ، وهى تلهث ، وقد تشعث شعرها ، واحمر وجهها من الحر ، ومن المرح . . .

وكانت تبدو فى الثانية والعشرين ، وهى فى الحقيقة لم تعد الثامنة عشرة . ولم يكن هناك ريب فى أنها أندلسية ، فكانت لها الصورة الساحرة من بين الصور جميعاً ، ولدة اختلاط الأعراب بالأعجام ، والجرمان بأولاد سام ، فى تلك البقعة التى تجمع فى واد ضيق من أوربا ، بطريقة خارقة ، كل ضروب الكمال المتعارضة فى الجنسين !

وكان جسمها اللدن الطويل ينطق كله بأفصح لسان . . .
حتى إن المرء ليكاد يشعر بأنها لو احتجب وجهها لأمكن إدراك ما يجول بفكرها ، وأنها تبتسم بساقيها ، كما تتكلم

بخصرها . . !

فنساء الشمال ، اللواتى يبقين طوال فصول الشتاء لا يرمن ولا ينحرفن عن النار ، ليست لهن هذه الرشاقة ، ولا تلك الطلاقة

كان شعرها كستنائى اللون ، وإن كان يبدو من بعيد أسود متألقاً . وكانت وجنتاها الناعمتان تبدوان مصبوغتين بلون الزهر الزاهى ، الذى تعرفه فى بشرة اللواتى وُلدن من أبوين أوربيين تحت هجير شمس المستعمرات . وكان بعينيها كَحَل بديع . . .

ودفعت الجماهير « أندريه » إلى مركبتها ، حتى موطئ قدمها . . . فحدجها بنظرة طويلة ، ثم ابتسم مضطرباً . . .

وأنذرته خفقات قلبه السريعة بأن هذه المرأة من النساء اللواتى سيلعبن فى حياته دوراً ! . . .

وكان موج المركبات ، الذى وقف ، يهدد فى كل لحظة بالطغيان والفيضان . . . فأراد ألا يضيع وقتاً ، فتقهقر ما استطاع ، وتناول من جيبه البيضة الأخيرة ، وكتب على قشرتها بالقلم الرصاص ستة أحرف « Quiero » : « أريدك ! . . . »

وانتهز لحظة كانت فيها المجهولة الحسناء شاخصة ببصرها

إليه ، فألقى إليها بالبيضة ، متلطفاً ، كأنما يلقى بوردة . . .

فتلقفتها الشابة بيدها . . . « Quiero » . . . فعل مدهش، يحوى كل المعانى : يريد ، ويحب ، ويشتهى ، ويتمنى . . . وإنه يرغب ، وإنه يعزز . . . فهو تارة وتارة ، وتبعاً للهجة التى تعطى له ، ينطق عن الهوى الآمر المسيطر ، أو النزوة الخفيفة العارضة . . . وهو أمر أو رجاء ، وهو اعتراف أو توسل . . . وقد لا يكون أحياناً إلا تهكماً ! . . .

وكانت النظرة التى شفع بها « أندريه » تلك الكلمة تفصح ببساطة عن قوله : « أحب أن أحبك ! . . . »

وكأنما أحست الشابة أن قشرة البيضة تحمل رسالة ، فدستها فى كيس صغير من الجلد ، معلق فى مقدمة عربتها . . . وكانت بلا ريب ستعود فتنظر وراءها ، ولكن سرعان ما تيامن بها تيار المهرجان الجارف ، وتبعتها مركبات أخرى ، فغابت عن بصر « أندريه » قبل أن يتمكن من خوض غمار الجماهير فى أثرها . . .

فابتعد عن الرصيف ، وتخلص جهده ، وجرى إلى الطريق المعارض ، ولكن الزحام الذى كان الشارع يغص به لم يمكنه من أن يُغِذَّ السير فيمضى قُدُماً . . .

ولما تمكن من الصعود على مقعد يشرف منه على المعركة

كان رأس الفتاة التى يبحث عنها قد اختفى . . .

فاكتأب . . وعاد يسير فى الشوارع الهوينا . . وبدا له المهرجان وقد انطفأ زهوه . . . فطفق يؤنب النفس لعبوس القدر الذى قطع عليه واقعة الغرام . . . ولأنه لو حزم أمره لشق طريقاً بين العجلات وسط الجمهور الأول . . .

أما الآن . . . فأين يجد ثانية تلك المرأة ؟ أواثق هو من أنها تسكن « أشبيلية » ؟! فإذا لم تكن من أهلها فوا سوء طالعه ! أين عساه يجدها ؟ ! أفى « قرطبة » ؟ ! أم فى « جيرس » ؟ ! أم فى « ملقة » ؟ !

وكان ذلك ضرباً من المحال . . .

ثم جعلت صورتها ، شيئاً فشيئاً ، تطل من خلال قلب أسيف ، فتزداد فى نفسه فتنة . . . وكان من شأن بعض تقاطيعها ألا يسترعى إلا فضلة انتباهة منه ، فأصبح فى ذاكرته مدعاة إلى حنان حزين . . . وكان كذلك قد لاحظ أنها قد جعدت سوالفها ، ولم يكن ذلك بدعاً منها ، فكثيرات من « الأشبيليات » يعنين عنايتها هذه ، إلا أن طبيعة شعرهن كانت بلا شك لا تصلح لذلك كما كان يصلح له شعر هذه الغادة المجهولة ، وليس يذكر « أندريه » شبيهاً لذلك . . . فضلا عن أنه كان بجانبى شفتيها حركة دائبة ، فهما تتخذان

فى كل آونة شكلا كأنه أسلوب من التعبير : تكادان تغيبان ، ثم تكادان ترتفعان ، فى استدارة أو رقة ، فى شحوب أو سمرة ، وهما مشتعلتان دائماً بلهيب متغير . . . إى والله ! . ولقد كان يمكن التعنّت فى وصفها ، وإثبات أن أنفها ليس إغريقيًّا ، وأن ذقنها ليس رومانيا . . . لكن لم يكن يسع المرء إلا أن يستمتع بمرأى جانبيْ ثغرها . . .

وما إن وصل تيار أفكاره إلى هنا حتى التجأ إلى باب مفتوح ، إذ سمع صوت حوذى يطلب الطريق . . . ومرّت مركبة تمشى خبباً . . .

وكانت فى تلك المركبة صبية ، لم تكد تتبين « أندريه » حتى ألقت إليه بخفة بيضة كانت فى يدها ، كأنما تلقى بوردة . . . ولسعد طالعه وقعت البيضة أرضاً ، وتدحرجت ، ولم تنكسر . . . لأنه — وياللذهوله التام من هذا اللقاء الجديد ! — لم يتحرك ليلقف البيضة قبل وقوعها . . .

وكانت المركبة قد دارت حول زاوية الطريق عندما انحنى ليلتقط الرسالة ، وكانت كلمة « أريدك » : « Quiero » !... ولم يكن على قشرة البيضة الناعمة المستديرة كلمة سواها ، والحروف الأولى من إمضاءة ثابتة ، تخالها رسمت بسن دبوس ، كأنما هى تجيب عمداً على رسالته بالكلمة نفسها . . .

٢

وفى تلك الأثناء كانت المركبة قد لفّت حول ركن الشارع ، حيث لم يكن يسمع وقع حوافر الخيل إلا وهناً على بلاط طريق « لاجيرالد »

فجرى « أندريه » فى أثرها خشية ضياع هذه الفرصة الثانية التى سنحت ، وقد تكون الأخيرة . ووصل فى الوقت الذى دخلت فيه الخيل ، خطوة خطوة ، بيتاً بلون الورد ، فى ساحة « النصر » — لابلازا دل ترينفو — ففتحت قضبان الباب الحديدى السوداء ، ثم أغلقت على شبح امرأة مسرعة . . .

لا مراء أن حسن الفطنة كان يقضى عليه بالتريث ، والسؤال عن اسمها ، وأسرتها ، وحالها ، ونوع معيشتها ، قبل أن يندفع خبط عشواء . . . ولكنه آثر الاندفاع . . . واستوثق من حسن سمته وهندامه ، ثم دق الجرس بلا تردد . . . فظهر كبير خدم القصر وراء القضبان ، دون أن يفتح :

— ماذا تطلب يا سيدى ؟

— أوصل بطاقتى إلى السيدة

فمضى الخادم يقول ، بصوت هادئ ، لا يعكر الشك كثيراً من صفو ما فيه من احترام :

— إلى أية سيدة ؟

— إلى التى تقطن هذا البيت ، على ما أظن ؟ !

— ولكن . . . ما اسمها ؟

فنفد صبر « أندريه » ، ولم يجب . . . فعاد الخادم يقول :

— هل لسيادتك أن تتكرم بتسمية من تقصدها ؟

— أعيد عليك القول بأن سيدتك تنتظرنى !

فانحنى كبير الخدم ، ورفع يديه قليلا ، علامة الاستحالة ، ثم تراجع دون أن يفتح له الباب ، أو يتناول البطاقة . . .

فذهب الغيظ عندئذ بأدب « أندريه » . . . فقرع الجرس مثنى وثلاث ، كأنه أمام باب مورّد بضائع ! . . .

قال فى نفسه : « إن امرأة سريعة الجواب على من يبوح لها بالميل إليها ، على هذه الصورة ، لا يحق لها أن تستنكر اقتحام بيتها . . . إنها كانت وحدها فى نزهتها ، فلا شك أنها وحيدة هنا ، والضجة التى أحدثها لا يسمعها سواها »

ولم يخطر له أن مهرجان المساخر الأسبانى يبيح حريات عارضة ، لا يسوغ امتدادها إلى الحياة العادية المنتظمة ، ولا تلقى هذا الحظ نفسه من القبول

فظل الباب مغلقاً ، والسكون مخيما على القصر ، كأنه مهجور ! . فما العمل ؟ ... لقد تمشى قليلا فى الساحة أمام النوافذ ، والشرفات ، مؤملا رؤية الوجه المنشود مشرقاً . . . وهو يتوقع إشارة . . . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . . فتقبّل ذل الرجوع . . .

ومع ذلك فإنه قبل أن يغادر الباب المغلق على كثير من الأسرار اتجه غير بعيد منه إلى بائع كبريت كان جالساً فى ركن مظلم ، وسأله :

— من يسكن هذه الدار ؟

فأجاب الرجل :

— والله ما أدرى ! . . .

فوضع « أندريه » فى يده قطعة نقود ، وأضاف :

— قل ! قل !

— ليس فى وسعى أن أقول ، وإلا غضبت علىّ السيدة ، وأمرت غلمانها بشراء ما يلزم لقصرها من جارى الذى يبيع علبه نصف فارغة ! . . . على أننى ، يا سيدى ، لا أذكرها بسوء ، فلا شىء سوى اسمها ، ما دمت تريد معرفته فهى « السنيورة دونا كونسبسيون پريز » حرم « دون مانوئيل جارسيا » . . .

— فزوجها إذن لا يسكن « أشبيلية » ؟ !

— إن زوجها فى أمريكا . . .

فاكتفى « أندريه » بما سمعه ، وألقى فى حِجر البائع بقطعة نقود أخرى . . . وعاد أدراجه فى الزحام إلى فندقه ، وهو فى حيرة من أمره . . . فما زال هناك ، ولو أن الزوج غائب ، سر خفى . . . ولم ير الظروف كلها مواتية . . . فهذا البائع الحريص يعرف دون شك أكثر مما يبدى ، ولكنه تحفظ ، وتركه يعتقد وجود عشيق آخر ، مختار من قبل . . . ولم يكن مظهر الخادم يكذب ما ساوره من الوساوس !

ووجد « أندريه » أنه لا يزال أمامه خمسة عشر يوماً قبل التاريخ المحدد لعودته إلى باريس . . . فهل تراها كافية للحظوة بنعمة القرب من تلك الصبية ، التى لا ريب فى أن حياتها قد سبق أن حظى بها المسعد المجدود ؟ . . .

وكذلك كانت تنال منه هذه الشكوك ، وهو يَعبر مدخل الفندق . . . وإذا بالبواب يستوقفه ، ويقدم إليه خطاباً . . . وكان الغلاف بلا عنوان . . . فسأله :

— أواثق أنت من أن هذا الخطاب لى ؟

— إنهم سلّموه إلىّ اللحظة : للسيد « أندريه ستيفانول »

فلم يتردد « أندريه » فى فضّه . . . وكان يتضمن هذه

السطور البسيطة ، على بطاقة زرقاء :

« رجاء إلى دون أندريه ستيڤانول ألا يحدث شَغَباً ، وألا يذكر اسمه ، وألا يعود فيسأل عن اسمى . . . فإذا تمشى غداً فى نحو الساعة الثالثة ، على طريق « أمبلم » . . . فستمر مركبة ، ربما وقفت »

فقال « أندريه » فى نفسه : « ما أطيب الحياة ! . . . »

وفى صعوده سلم الطابق الأول ، تكشَّفت له ، سلفاً ، المودَّات الدانية القطوف . . . وطفق يبحث عن المصغَّرات المحبَّبة لأجمل الأسماء : «كونسبسيون . . . كونشا . . . كونشيتا . . . شيتا . . . » !

٣

استيقظ « أندريه ستيانقول » فى صباح اليوم التالى جذلا مستبشراً . واكتسح النور نوافذ « المشرفية » الأربع . وارتفعت جلبة المدينة : من حوافر الخيل ، وصياح الباعة ، وجلاجل البغال ، ونواقيس الأديرة . . . وجمعت فى الساحة البيضاء دويها ، دليل الحياة . . .

لم يذكر أن مرّ به ، منذ بعيد ، صباح سعيد كهذا الصباح . فتمطى بقوة ، ثم ضم ذراعيه ، كأنما هو يحلل النفس بالعناق المنتظر . . .

وكرر فى نفسه مبتسما : « ما أسهل الحياة ! . . . بالأمس ، فى مثل هذه الساعة ، كنت وحيداً ، بلا غاية ، ولا فكرة . . وهأنذا ، فى هذا الصباح ، قد صرت اثنين ! . . . فماذا يجعلنا نسمى التمنّع أو الاستمهال من جانب النساء صدًّا أو إهمالا ؟ ! إننا نسأل ، وهن يمنحن . . . ولِمَ لا يكون ذلك كذلك ؟ »

ونهض ، وأمر بإعداد الحمام . . . وفى انتظاره وقف إلى النافذة ملصقاً جبينه ببلورها ، ناظراً إلى الساحة المغمورة بنور

النهار . وكانت بيوت « أشبيلية » ملونة الجدران بتلك الألوان الخفيفة التى تشبه ألوان ثياب النساء ، فكان منها : الأصفر ذو الإطار الأبيض ، والوردى الخفيف ، والأخضر المائى ، أو البرتقالى . . . وبعضها بنفسجى شاحب . . . ولم تكن العيون تقذى فى أى مكان بمنظر الشوارع القائمة العابسة ، كشوارع « قادس » أو « مدريد » . . . فلا أثر لذلك فى « أشبيلية » ، كما أنه لا أثر فيها للّون الأبيض الزاهى ، الذى تزوغ منه الأبصار . . .

وكانت فى الميدان شجرات برتقال مثقلة بالثمار ، وينابيع جارية ، وفتيات ضاحكات ممسكات أطراف شيلانهن بكلتا اليدين ، كما تضم المرأة العربية ملاءتها . . .

وفى كل مكان من أركان الميدان ، من منتصف الطريق ، ومن آخر الأزقة ، كانت ترن جلاجل البغال . . .

فخيّل إلى « أندريه » أنه لا سبيل إلى العيش فى غير « أشبيلية » . . .

وبعد أن أتم زينته ، وشرب متمهلا فنجاناً صغيراً من الشوكولاتة الأسبانية الدسمة خرج إلى حيث تسوقه المصادفات . . .

أما المصادفات الغريبة فقد جعلته يتبع أقرب طريق ، فسار من فندقه إلى « ساحة النصر » حيث كان قصرها . . .

ولكنه ذكر الاحتياطات التى أشير عليه بها ، وسواء أكان قد خاف تكدير « خليلته ! » بمروره رأساً أمام بابها ، أم أنه حذر أن يمزقه اشتهاء رؤيتها وشيكاً ، فقد تابع الرصيف المقابل ، دون أن يلتفت إلى يساره . . . فوصل إلى متنزه كانت معركة « الكرنفال » ، بالأمس ، قد غطّت أرضه بالورق وقشر البيض ، مما جعل الحديقة الفخمة أشبه شىء بالمطبخ . . . وكان المكان قفراً ، لأن الصيام بدأ . . .

غير أن « أندريه » رأى فى إحدى الطرقات الممتدة إلى الضاحية عابر سبيل يقصده ، فعرفه ، وقال مادًّا إليه يده :

ـ صباح الخير يا « دون ماتيو » . . . ما كنت أتوقع رؤيتك مبكراً هكذا !

ـ وما حيلة المرء يا سيدى إذا ما كان وحيداً، مُهْمَلا ، عاطلا . . . فإنى أتنزه صباحاً ، وأتنزه مساء ، وأقرأ بالنهار أو أذهب إلى ملعب الثيران . . . وهذا هو الوجود الذى اتخذته لنفسى . . . وإنه لكئيب !

ـ لكن إذا صدق ما يدور من الهمس فى المدينة كانت لياليك تعزى الأيام !

ـ إذا كانوا لا يزالون على هذا الرأى فهم مخطئون . فإنه منذ اليوم إلى يوم أن يقضى « دون ماتيو دياز »

لن تُرى امرأة عنده قط . . . لكن دعنا من الحديث عنى ، وقل لى كم من الزمن تقضى أيضاً بيننا ؟

وكان « دون ماتيو دياز » هذا أسبانيًّا فى الأربعين ، أوصى « أندريه » بالاتصال به لأول عهده بالنزول فى أسبانيا لمكانته وجاهه . . . وكان كالكثير من أبناء جلدته يتكلم بإشارات وعبارات خطابية بالفطرة . . . فالتفخيم فى الكلام عند الأسبان كالثنايا الكبيرة الأنيقة فى المعطف الفخم . . . وكان رجلا مهذباً ، حالت ثروته الطائلة وحدها بينه وبين الحياة العملية . . . وعرف خاصة بتاريخ غرفة نومه ، المشهورة بكرم المثوى . . . ولذا دهش « أندريه » لما سمعه منه عن زهده الطارئ . . . فلم يلح فى الاستجواب . . .

وتمشيا معا فترة على شاطئ النهر ، حيث كان « دون ماتيو » يملك أرضاً معاً على ضفافه . وكان وطنيًّا لا يمل الإعجاب به . . . وبعدما تغنى بمديح نهر « الوادى الكبير » هذا ، وفضّله على النيل والفرات ، خاض غمار السياسة . . . وكان ملكيًّا ، ساخطاً على الأحزاب المعارضة ، يرى ضرورةً أن تجتمع قوى الوطن حول العرش لمعاونته على إنقاذ الميراث السامى لتاريخ مخلد . . . وقال :

— يا للحطة ! ويا للشقاء ! . أبعدما نملك أوربا ،

وبعد مُلك شرلمان ، وبعد مضاعفة ميدان العمل فى الدنيا ، باكتشاف أمريكا ، هذه الدنيا الجديدة ، وبعد تملّك أمبراطورية لا تغرب الشمس عن أملاكها ، وأكثر من هذا كله بعد أن نكون أول من هزم أمبراطوركم « نابليون » . . . أبعد هذا نلهث الآن تحت عصىّ شرذمة من قطاع الطرق المولَّدين؟ ! . . . يا لمصيرك ياإسبانيا ! . . .

وما كان المجال يسمح بالرد عليه بأن أولئك اللصوص هم إخوة « واشنجتون » محرر أمريكا ، و « بوليڤار » محرر كولمبيا وبوليڤيا ، فقد كانوا فى نظره سفلة لا يستأهلون حتى الشنق !

ثم هدأ واستطرد :

— إنى أحب بلادى . . . أحب تلك الجبال والسهول ، أحب اللغة والثياب ، وإحساس شعبها . . . ولجنسها صفات من جوهر ثمين ، فهى بنفسها نبالة ، بمعزل عن أوربا ، جاهلة كل ما عداها ، محصورة فى أرضها ، كالحديقة فى سورها . . . وأنت تعلم أنهم يطلقون على الأسبانى القح « هيدلجو » ، أى : السلالة النقية الخالصة من كل خليط بالدم المغربى . . . وهم لا يريدون التسليم بأن الإسلام ، فى مدى سبعة قرون ، قد أصّل جذوره فى أرض الأسبان . . .

أما أنا فقد كان من رأبى دائماً أنه جحود أىّ جحود أن نتبرأ من أمثال هؤلاء الأسلاف . . . ولسنا مدينين لغير العرب بالصفات الاستثنائية الممتازة التى رسمت فى التاريخ صورة ماضينا العظمى . . . فهم أورثونا ازدراءهم المال ، وازدراءهم الكذب ، وازدراءهم الموت . . . كما أورثونا أنفتَهم التى تُعجز الوصف . . . وقد أخذنا عنهم ترفعنا عن الصغائر ، وكذلك استهانتهم بالأعمال اليدوية . . . والحق أننا أبناؤهم ، وليس عبثاً استمرارنا على رقصهم الشرقى ، على أنغامهم الحماسية . . .

* * *

وطلعت الشمس فى سماء طلقة صافية ، وظهرت من خلال رؤوس الأشجار العتيقة القاتمة خضرة الغار والسعف . . . وزادت سحر الصباح الشتوى ، فى بلد لا يطمئن إليه الشتاء ، لفحات دافئة مفاجئة . . .

قال « دون ماتيو » : أرجو أن تتناول اليوم عندى طعام الغداء ، فبيتى هناك على مقربة من طريق « أمبلم » ، نبلغه فى نصف ساعة . . . فإذا سمحت استبقيتك حتى المساء ، وعرضت عليك خيولى الجديدة

فاعتذر « أندريه » بقوله :

ـــ أرانى سأثقل عليك ، حسبى أن أقبل الغداء ، وأعتذر

عن قبول النزهة ، لأنني ضربت هذا المساء موعداً لا يمكنني التخلف عنه

— امرأة ؟ ! . . . لا تخف . . . فلن أستجوبك . . . وأنت حر ، ولك الفضل إن أنت مكثت معي حتى يحين موعدك ، وما كنت في سنّك ألتي إنساناً في أيامي التي أصون سرّها . . . فآمر بإحضار الطعام إلى غرفتي ، وتكون التي أنتظرها ه أول مخلوق أحادثه منذ استيقاظي

وسكت قليلا ، ثم قال بلهجة الناصح :

— آه يا سيدي ، حذار من النساء . . . ولا أقول لك اهرب منهن ، لأنني أنا نفسي أفنيت حياتي معهن ، ولو أن حياتي تعاد لأردت أن أحيا مثل تلك الساعات نفسها . . . ولكن احترس ، احترس منهن . . .

وكأن « دون ماتيو » وجد تعبيراً عما في ضميره ، فأضاف في أناة :

— نوعان من النساء ، على المرء أن لا يعرفهما مهما يكلفه ذلك : اللواتي لا يحببننا ، واللواتي يحببننا ! . . . وبين هذين الطرفين ألوف النسوة الفاتنات ، ولكننا لا نعرف كيف نقدرهن . . .

وكادت الكآبة تخيم على الغداء ، لولا حرارة « دون ماتيو »

فى الكلام ، واندفاعه الخطابى فى القول ، لأن « أندريه » كان مشغول القلب بذات بلابله ، ولم يكن يصغى إلا لماما ، وكلما دنا الموعد ازداد خفقان فؤاده شدة وإسراعاً . فكأن نداءً مصما ، وأمراً صارما ، يطرد من ذهنه كل شىء ، خلا المرأة المنشودة . وكان يبذل كل شىء فى سبيل تقدم عقرب الساعة — الذى ظل بصره مثبتاً به — خمسين دقيقة فقط ! . . . ولكن الساعة التى ينظر إليها الإنسان تقف جامدة . ولا يجرى الزمن بأسرع مما يجرى مستنقع راكد . . . وأخيراً ، لما كان مضطراً للمكث ، وكان كذلك غير قادرعلى أن يطيل سكوته ، قال فجأة لرب البيت ، ودل بما قال على حداثة سنه :

— دون ماتيو . . . إنك كنت لى دائماً خير ناصح . . . فهل تسمح لى أن أبوح لك بسر . . . وأن أسألك رأيك ؟

فقال « دون ماتيو » بلهجة أسبانية ، وهو يقوم عن المائدة فى طريقه إلى قاعة التدخين :

— إنى رهين إشارتك

فتمتم « أندريه » قائلا :

— حسناً ، إليك سؤالا ما كنت لأسأله إنسانا سواك . . . أتعرف فى « أشبيلية » من تدعى « الدونا كونسبسيون جارسيا »؟..

فقفز « ماتيو » صارخاً :

ــ كونسبسيون جارسيا ؟ كونسبسيون جارسيا ؟ . أيتهن ؟ أفصح . . . فى أسبانيا ألف كونسبسيون جارسيا . إنه اسم عادى مثل : جان دوفال ، ومارى لمبير ، عندكم . . . بربك قل لى ما اسم أسرتها . . . أيكون : ب . . . پريز ؟ . . . قل . . . أهو پريز ؟ كونشا پريز ؟ ولكن تكلم ! . . .

فبهت « أندريه » لهذا الاضطراب الباغت ، وتسلط عليه شعور بأن الأولى كتمان الحقيقة ، ولكن سبق لسانه إرادته ، فأجاب بسرعة :

ــ أجل ! . . .

عندئذ استرسل « ماتيو » فى الكلام ، يفصّله بدقة ، كمن يمزّق جُرحاً :

ــ « كونسبسيون پريز دى جارسيا » ــ ساحه النصر ــ ثمانية عشر عاماً ، شعر يكاد يكون حالكاً ، وثغر . . وثغر ! . . .

فقال « أندريه » :

ــ أجل ! . . .

ــ لقد أحسنت بمحادثتك إياى عنها . . . أحسنت يا سيدى . . . وإذا استطعت أن أقفك عند بابها أكون قد أحسنت صنعاً ، وجلبت لك هناءً نادراً

— لكن من تكون ؟

— كيف ؟ أفلا تعرفها ؟

— إنى صادفتها أمس ، لأول مرة ، ولم أسمع حتى حديثها . . .

— إذن فلا يزال فى الوقت فسحة . . .

— أهى عاهر ؟

— كلا ! كلا ! . . . إنها على الجملة امرأة طاهرة ، فليس لها من العشاق أكثر من أربعة أو خمسة . . . وهذا يعدُّ فى عصرنا عفافاً ! . . .

— وىْ !

— زد على هذا حظاً موفوراً من الذكاء ، وعقلا نيِّراً من أدق العقول ، ومعرفة فائقة بالحياة . . . ولست أحرمها كل ثناء ، فهى ترقص رقصاً فصيحاً ، جذّابا ، خلاّبا ، غلاّباً . . . وتتكلم كما ترقص . وتغنى كما تتكلم . أما جمال محياها فأظنك لا تشك فيه . . . أما فمها . . . لعل هذا يكفى . . . أقلت ما فيه الكفاية ؟

فاهتاج « أندريه » ، ولم يجب ! . . .

ثم أمسك « دون ماتيو » بأكمام سترة ضيفه ، وقال ، وهو يقسّم جمله ، منتفضاً مع كل كلمة :

— إنها ، يا سيدى ، شر النساء . . . أسامع أنت يا سيدى ؟ ! إنها شر نساء الأرض ! . ولا أمل لى ، ولا عزاء لقلبي ، إلا أنها فى يوم موتها لن يغفر الله لها ! . . .

— مع هذا ، يا « دون ماتيو » ، ليس لى أنا أن أتكلم عنها ، كما تتكلم . . . ولا حق لى فى أن أخلف الموعد الذى ضربته لى ، أأكون بحاجة إلى أن أكرر عليك أننى بحت بسرى ، ويؤسفنى اضطرارى لفراقك قبل اطلاعى على سرك ؟ . . .

ومدّ إليه يده ، فوقف « ماتيو » أمام الباب معترضاً :

— أصغ إلى : أستحلفك أن تصغى . فمنذ قليل ، كنت تقول إننى رجل ناصح ، أصيل الرأى . فلأقبل هذا الحكم . وما أنا بحاجة لأن أكلمك بهذه الصفة . ولقد نسيت حتى مودتى لك . وكانت مع ذلك كافية لتفسير إلحاحى

— وبعد ؟ . . .

— إنى أخاطبك مخاطبة الرجل للرجل ، كما يستوقف أى إنسان عابر سبيل لينذره بخطر داهم فى مجاهل الطريق . . . وإنى أصرخ فيك : لا تتقدم ! . . . ارجع أدراجك . . . انس من رأيت ، ومن خاطبك ، ومن كتب إليك ! . وإذا كنت تعرف السلام ، والليالى الهادئة ، والحياة الخالية ، وكل ما نسميه هناءة ، فلا تقرب « كونشا پريز » ! . وإذا

أردت ألا يشطر هذا اليوم ماضيك عن مستقبلك شطرين ، من سرور وكرب ، فلا تدْنُ من « كونشا پريز » ! . وإذا لم تكن تريد أن تذوق الجنون ، الذى تولده هذه المرأة إلى منتهى الجنون ، وتبقيه فى قلب المفتون ، فلا تقرب هذه المرأة ! . . . اهرب منها ، كما تهرب من الموت ! . . . دعنى أنقذك منها ! . وكن بنفسك رحيما !

— دون ماتيو . . . أأنت إذن تهواها ؟

فمر الأسبانى بيده على جبينه ، وتمتم قائلا :

— إيه . . . كلا ! . . . فقد مضى كل شىء وانقضى ، ولم أعد أحبها أو أكرهها ، وما فات مات . . .

— على هذا ، فلست أجرحك شخصيًّا ، إذا أنا لم أتبع نصيحتك ؟ . إنى أضحى بارتياح تضحية مثل هذه لأجلك ، بيد أنى ما كنت لأرضاها لنفسى . . . فماذا ترى ؟

فنظر « ماتيو » إلى « أندريه » ، وانقلبت ملامحه فجأة ، وقال له مداعباً :

— ليس للرجل أن يذهب ، يا سيدى ، إلى أول موعد تضربه له المرأة . . .

— ولماذا ؟ . . .

— لأنها لا تجىء فيه ! . . .

فابتسم « أندريه » لذكرى مرت بخاطره . . . وقال :

— هذا صحيح أحياناً . . .

— فى أغلب الأحيان . وإذا كانت بالصدفة تنتظرك الآن فثق أن غيابك عنها يزيدها ميلاً إليك . . . ولا أعنى بهذا شخصاً معيناً ، فكذلك تكون الفتاة ، ولو كان اسمها « لولا » أو « روزا » . . . إنى أوصيك بالجلوس فى مقعدك ، فلا تتركه من أجلها . . . ودعنا ندخن سيجار « هاڤانا » ونشرب عصير الفاكهة المثلجة ، وهو مزيج قلما يعرف فى مطاعم باريس

ومضت فترة سكوت . . . وكان كلاهما جالساً إلى جانب من خوان صغير عليه كأسان ، ومنافض للسجائر . . .

وسأل « دون ماتيو » :

— والآن ؟ فيم نتكلم ؟ . . .

فأشار « أندريه » إشارة معناها : « أنت أدرى ! » . . .

فقال « دون ماتيو » بصوت أشد انخفاضاً :

— ابدأ إذن ؟ ! . . .

واختفى السرور الزائف ، الذى بدا عليه منذ هنيهة ، وراء سحب ملبدة . . .

٤

منذ ثلاثة أعوام لم يكن الشيب قد وخط رأسى كما ترى . . . وكنت فى السابعة والثلاثين ، أحس أنى فى الثانية والعشرين . . . ولم أشعر فى أية لحظة من حياتى أن شبابى يمضى أو يولى . . . ولقد سمعتَ عنى أنى زير نساء ، فهذا محض افتراء . ذلك أنى كنت أجِلّ الحب ، فلا أتردد على دور الفجور ، وما حظيت إلا بالمرأة التى شعرت نحوها بعشق مبرّح . . . ولو أننى عددت لك أولئك لدهشت لقلة عددهن . ولوأننى لو أطلقتهن أمام ذاكرتى لما مرّت بينهن شقراء . وسأبقى جاهلا سر هؤلاء الشاحبات . والحق أن الحب عندى لم يكن مجرد تضييع وقت وترويح نفس ، أو كما هو عند بعض الناس من عبث الأمور . إنه كان حياتى نفسها ، ولو أننى محوت من ذكرياتى الأفكار والأعمال التى كانت المرأة غايتها لما بقى إلا الفراغ . . .

بعد هذه المقدمة ، يمكننى أن أسرد عليك الآن ما أعرفه عن «كونشا پريز» .

منذ ثلاثة أعوام ونصف عام ، فى فصل الشتاء ،

كنت عائداً من فرنسا فى ٢٦ ديسمبر ، فى جو شديد القر ، بالقطار السريع الذى يمر حوالى الظهر بجسر نهر « البيداسوا » ، وقد تراكم الثلج ممسكاً « ببياريتز » و « سان سيباستيان » ، وتأخرت القاطرة ساعتين فى « زمرقة » حيث أخذ العمال فى تنظيف الطريق ، فقام القطار ليقف مرة أخرى فى قلب الجبل ، واستغرق إصلاح ما أضر به سقوط الثلج ساعات ، واستغرق ذلك الليل بطوله ، وتلبد الجليد على زجاج المركبات ، وأخفت من صوت القاطرة التى سارت تخترق تلك التلال المتراكمة فى طريقها ، فى سكون زاده الخطر جلالا !

وفى صباح اليوم التالى وقف القطار عند « أمفيلا » متأخراً بنا ثمانى ساعات . وصمنا يومنا . وعلمنا أخيراً أن علينا أن نقضى فى هذا المكان أربعة أيام ! . . .

وعند الساعة الثامنة مساء ، فى كبد ليل قر ، حرمت أيضاً طعام العشاء ، فرجعت إلى ركن من مؤخرة العربة ، وشعرت بكرب لا يحد ، وكان فوق احتمالى قضاء ليلة ثالثة مع السياح الإنجليز الأربعة النائمين فى الديوان ، الذين تبعونى من باريس . . . فتركت حقيبتى ، وحملت غطائى ، ودخلت مركبة من مركبات الدرجة الثالثة ، وكانت غاصة

بنسوة أسبانيات من بنات الشعب ، وبحّارة ، وراهبتين ، وثلاثة طلاب ، وراقصة ، وشرطى . . .

وأنت تراه خليطاً ، يتكلم بصوت مزعج ، فى نَفَس واحد ! . ولم يمض ربع ساعة حتّى عرفت حياة كل من كانوا حولى . . . ومن الناس من يهزأ بمن يروى حياته هكذا على رؤوس الأشهاد . . أما أنا فأشفق على هؤلاء البسطاء ، الذين يعوزهم تفريج همومهم بإذاعتها ، فتذهب صرخة فى واد !

وعاد الجليد فدهم القطار الذى تجره البغال ! . . . ولما وثق الركاب من أن القطار لن يتحول من فوره عن ذلك المكان طلبوا من الراقصة النورية أن ترقص ، فرقصت . . . وكانت فى نحو الثلاثين من عمرها أو تزيد . . . وكانت دميمة جدًّا ، ولكن لكأنما كانت فى خصرها حتّى ساقيها نار تتلظى . . .

فى برهة نسينا البرْد والبرَد ، والليل البهيم . . . واجتمع الركاب حولها ، وجعل الذين فى الصف الأول منهم يصفقون على نغمة الرقص ! . وعندئذ لحظتُ فى ركن بنية صغيرة تغنى . . . وكانت ترتدى ثوباً ورديًّا . . . فأدركت أنها أندلسية ، لأن بنات شمال أسبانيا يؤثرن الألوان القاتمة . . . وقد غطى كتفيها وصدرها « شال » أصفر . وكانت معصبة بمنديل معقود تحت ذقنها . . . وعرف الركاب أنها تلميذة فى دير « سان جوزيه داڤيلا » ، وأنها تقصد « مدريد » لزيارة

أمها ، وأنها لم يكن لها خليل ! وأنها تدعى « كونشا پريز » . . .

كان صوتها يثقب الفؤاد . . . وكانت تغنى دون أن تتحرك وهى تكاد تكون مضطجعة ، مسبلة الجفنين . . . ولكنى لا أحسب أن الأغانى التى كانت ترددها قد تعلمتها عن الراهبات ! . وكانت تختار من الرباعيات المشهور عند الشعب ، وفيه كل عواطفه . . ولكأنى الآن أسمعها بصوتها الحنون :

إن فراشك ياسمين
وغطاءك ورد أبيض
ووسادتك زنابق
وأنت وردة ناعسة...

فلما لاحظتْ أن هذه الأغانى الرقيقة لا تتفق وصورة تلك الراقصة النورية البشعة غيرتْ نغمتها بأغان تهكمية :

يا بنت ! . . . يا ذات العشرين خليلا
إلا واحداً وعشرين ! . . . .
لو أنهم نظروا إليك بعينى . . .
لتركوك قائمة ، فبقيت وحدك ! . . .

فحارت الراقصة الغجرية فى أمرها ، بادىء بدء : أتضحك أم تتشاجر ! . واجتمع الساخرون حول الصغيرة المنافسة . . . ولم تكن الراقصة من وفرة الذكاء بحيث تدافع عن نفسها ، فسكتت وهى تصر على أسنانها . . . فازدادت

الصغيرة جرأة وابتهاجاً . . . فانفجر غضب الراقصة ، ورفعت يديها ، وقد التوت أصابعها ، وصاحت بها :

— إنى أفقأ عينيك ! . . . أخرجهما على أصابعى ! . . .

فأجابت « كونشا » بكل هدوء ، وقد رفعت حاجبها دون أن ترفع جفنها :

— يا ويلى ! . . .

وفى وسط سيل الشتائم أضافت بصوت هادئ ، وكأنها أمام ثور فى ملعب :

— أيها الحراس ! آتونى بمهمازين ! . . .

فانفجرت العربة سروراً ، وصاح الرجال :

— الله ! الله ! .

ونظرت النساء إليها حناناً . . . فلم تضطرب الصبية إلا عند شتمة واحدة ، إذ قالت لها الراقصة :

— يا بنت ! . . .

فأجابت وهي تضرب على ثدييها الصغيرين :

— إننى امرأة ! . . .

ثم تماسكت المتحاربتان ، وهما تذرفان دموع الغيظ ! . . .

— ففصلتُ بينهما ، لأنى لم أطق رؤية امرأتين تتشاجران ، وجمهور لا يكترث ، فالنساء شر الناس شجاراً ، لا يعرفن ضربة اليد التى تسكت ، ولكنْ ضربةَ الظُّفر التى تعمى . . . فما أشنع عراكهن . . .

فصلت بينهما إذن ، وما كان ذلك علىَّ هيناً . ثم اتخذت كل منهما ركناً وهى تخبط بقدميها ! . . . ولما سكن كل شيء طلع علينا شرطى غليظ القلب من الديوان المجاور ، ودخل فى وسطنا ، وألقى نظرات الحماية على ساحة القتال التى سادها السلام . وبثبات الشرطى المعصوم ، الذى يظلم عادة الأضعف ، صفع «كونشا» الصغيرة المسكينة صفعة وحشية طائشة ، ومن دون شرح لهذا الحكم أخذ البنت إلى ديوان ثان ! . ثم رجع وتربع ، ووضع يده على سيفه بارتياح ، كأنه أعاد إلى جيشه النظام ! . . .

ثم سار القطار ، ومرّ بمناظر عجيبة ناصعة فاتنة ، وكأن القمر الزاهى هو روح الوادى المثلج ، ولم أره فى أى مكان أزليا كما رأيته فى تلك الليلة . . . كانت السماء مكفهرة ، وهو والثلج دون غيرهما يلمعان . . . فظننت أنى فى سبيل استكشاف القطب ، فى قطار خيالى ساكن بلا حراك ! . . .

وكنت أرى وحدى هذا السراب ، وقد نام جيرانى . . . فقلما يعبأ الناس بالمناظر الطبيعية الجميلة . . . وفى العام الماضي وقفت على جسر «تريانا» أتمتع بأجمل غروب للشمس فى العام ، فلا شيء يماثل روعة «أشبيلية» فى تلك اللحظة . . . فإذا المارة منصرفون إلى أعمالهم يتكلمون ويتنزهون ويتضجرون ، لم يعر أحدٌ منهم ذلك المنظر التفاتاً ، ولم يشهد أحدٌ تلك الليلة الظافرة ! . . .

وبينا أنا أتأمل القمر والثلج فى الليل ، وقد شبعت عيناى من ذلك المنظر الناصع الساطع ، عبرت قلبي صورة تلك المغنية الصغيرة ، فعذبتْ قلبي . . . أين تراها الآن ؟ . . . وأطللت من حاجز عربة القطار ، فوجدتها قريبة فى متناول يدى : نائمة كطفل أضناه التعب ، وقد ألقت برأسها على كتف راهبة ، فوددت لو صدقت أنها امرأة ، كما قالت عن نفسها . . . لكنها كانت فى نومها كطفلة عمرها ستة أشهر ! . . . وكانت سوالفها مرسلة على خديها المستديرين ، وجذب بصرى ثغر صغير ، سمين الشفة . . . فساورتني الشكوك فى أحلامها : أكانت تطلب ثدى المرضع ، أم فم الحبيب !

وبعد قليل دخلنا المحطة ، مع نور الصباح . . . فساعدت «كونشا» الصغيرة فى جمع ستة طرود ، وتقدمت لمعونتها فى حملها ، فرفضتْ . وحملتها وحدها كيفما قدرت ، ثم انطلقت تجرى ، وما لبثت أن غابت عن بصرى . . .

وها أنت ذا ترى أن هذا اللقاء الأول لم يكن له معنى خاص ، بل يكاد يكون غامضاً . . . لفتت نظرى وملأت نفسى فترة عارضة ، عدت بعدها إلى ميدان أعمالى ، فألهانى عن التفكير فيها . . .

٥

وفى الصيف التالى لقيتها فجأة فى « آشبيلية » فى شهر أغسطس

كنت وحدى فى بيتى ، البيت الذى ملأته النساء مدى سنين .. وكان إذ ذاك خالياً خاوياً ، وهو شيء لا أطيقه .. فهربت من الضيق بعد ظهر يوم شديد الحر ، وذهبت لزيارة مصنع « السجائر » .. وكدت فى الطريق أموت من القيظ ، حيث لا يوجد فيه إلا الكلاب ، والفرنسيون

دخلت المصنع وحدى ، دون مرشد أو دليل ، وهو إكرام خاص آثرونى به ، لأكون حرًّا فى ذلك الحريم الهائل ، الذى يضم نحو خمسة آلاف عاملة .. متبذلات فى لبسهن وكلامهن .. أكثرهن قد كشفن من شدة الحر عن الصدور ، وبعض الأفخاذ .. فكان مشهداً خليطاً من عجائز ، وفتيات ، وبنات .. بين سمينات ونحيلات ، وحبالى ومرضعات ، غليظات وهزيلات ، لا يكاد ينقصهن إلا نوع واحد ، فيما أظن ، وهو العذارى الطاهرات ...

وكان منهن جميلات . . .

فاخترقت صفوفهن ، وهن يرمينني ببذئ القول ، أو يطلبن إحساناً ! . وفيهن من اضطربن لرؤية رجل بينهن ، فأشرن إشارات منكرة ، فلم أعرهن التفاتاً . ولكنهن على رثاثة ملابسهن ، معتنيات أشد عناية بشعرهن ، وقد صبغن بالأحمر خدودهن ، وأطراف أثدائهن ، وصبغن بالأبيض وجوههن إلى ما تحت النهود . . . وليست منهن من لم تشبك شعرها بالدبابيس وتضع وردة حمراء . . ولم تكن منهن واحدة ليس فى منديلها علب البودرة والأحمر الصغيرة . . كن كممثلات فى ثياب سائلات ! . . . فمنحت الأمهات نقوداً ، وأعطيت الصبايا ورداً . . . ولم يكن منهن أكثر من خمس عشرة فتاة أعجبنى جمالها ، بل هذا كثير ! . . وعند ما كنت أقطع القاعة الرابعة ، فى طريقى إلى الخارج ، سمعت بين الأصوات والضحكات صوتاً قوياً يقول لى :

— أيها الفارس ! إذا أنت أعطيتنى صلدياً غنّيت لك

فعرفت فيها — ويا لدهشتى — « كونشا » . . . وكانت ترتدى قميصاً محتشما ، وبيدها زهرة رمان . . . فسألتها عما جاء بها إلى ذلك المكان ، فقالت :

— الله أعلم ! . . ولست أذكر ! . . .

ـ ولكن ماذا جرى فى « مدرسة الراهبات » ؟

ـ عند ما ترجع إليها البنات من الباب يخرجن من الشباك !

ـ وهل منه خرجتِ ؟

ـ كلا ، أيها السيد ، لأنى شريفة . فلم أدخل الدير بتاتاً ، خشية أن أرتكب الخطيئة ! . والآن أعطنى « خمسة صلديات » فأغنى لك . . . والمراقبة بعيدة عنا !

ولم تكترث « كونشا » بنظرات زميلاتها ، فاسترسلنا فى الكلام :

ـ ومع من تعيشين فى « أشبيلية » ؟

ـ مع أمى

فارتجفت ، لأن عاشق البنت قد يتقى الله فيها . . . أما الأم الإسبانية ، فالله يستر ! . . . قالت « كونشا » :

ـ إنى وأمى مشغولتان : هى بالكنيسة ، وأنا هنا أصنع اللفائف . . . وهذا فرق السن !

ـ وهل تأتين كل يوم ؟

ـ تقريباً . . . وإنما . . . عند ما لا يهطل المطر ، ولا أكون فى النوم راغبة ، وقد سئمت النزهات . . . فالعاملة حرة هنا ، ويكفى مجيئها قبل الظهر . . . ومنا من لا يأتين إلا يومين فى الأسبوع . . . وما أتفه مكسبنا هنا . . . ومنا

من لا يستيقظن إلا عند إغلاق الباب ! . . .

— وكم تكسبين ؟

— ٧٥ دانقاً فى الألف سيجارة . . . فأعطنى قطعة أخرى ، أيها السيد ، لأغنى لك أغنية لم تسمعها من قبل

فرميت لها جنيها ذهباً ، وشددتها من أذنها . . . وانصرفت

وفى شباب المسعدين ، يا سيدى ، لحظة حظ معينة ينقلب فيها البخت ، ويرتد معه الصعود هبوطاً ، ويبدأ فصل النحس . . . وكان ذلك نصيبى ، فقطعة الذهب التى ألقيتها إلى تلك الصبية كانت كرمية الزهر القاضية فى المقامرة . . . وإنى أؤرخ من تلك اللحظة ، وفى ذلك المكان ، حياتى الحاضرة الخاسرة ، وبدء سقوطى الأدبى ، وكل ما ترى على جبينى من الحزن ! . وستعرف كل شىء ، وإن كانت الحكاية عادية بسيطة إلا فى نقطة واحدة ، قتلتنى بها . . .

خرجت إذن من المصنع ، وسرت الهوينا فى الشوارع المحرومة من الظل ، وإذا بى أسمع وقع أقدام مسرعة من خلفى ، فالتفت ، فإذا بها قد لحقت بى ، وقالت :

— شكراً يا سيدى !

ولحظت فى صوتها تغيراً . . . ولم أفطن ، لأول وهلة ، إلى تأثير منحتى الذهبية ، غير أنى الآن لاحظت أن تأثيرها

كان عظيما ، فإن جنيهاً عندنا ثمن باقة من الورد ، وهو عند عاملات السجائر مرتب شهر . وفوق ذلك كان الجنيه قطعة من الذهب ، والذهب لا يرى فى أسبانيا إلا فى معارض الصيارفة . فأحييت عندها ، من دون قصد ، كل اشتهاء الغنى . . . فتركت بالطبع السجائر ، واللفائف ، والعلب ، واقتفت أثرى ، بعد ما أحسنت من هندامها ، وعثرت علىّ . . . قالت :

— تعال ، فأنت حبيبى . سرْ بى إلى أميمتى ، فاليوم فسحة ، والفضل لك

— وأين تسكن أمك ؟

— فى شارع « مانتاروس » ، على مقربة منا . . . لقد كنت ظريفاً معى ، ولكنك لم تقبل أيها القاسى غنائى ! . وعقاباً لك عليك أنت الغناء ! . . .

— أما هذا فلا !

— بل هو حتم عليك ، وإنى ألقنك !

ومالت على أذنى وقالت :

— ردد لى هذه الأنشودة :

— أيسمعنا أحد ؟ — لا !

— أتحبين أن أقول ؟ — نعم !

— ألك عاشق آخر ؟ — كلا !

— أتحبين أن أكون ؟ — نعم . . . »

ولكن أنت تعلم أنها أغنية ، وليس هذا جوابى ! . . .

— أحقا ؟

— كل الحق

— ولماذا ؟

— احزرْ !

— لأنك لا تحبيننى ؟

— لا ! . فإنى أراك ظريفاً !

— ولكن لك صاحباً ؟ !

— كلا ، ليس لى

— إذن ، فهى تقوى ؟

— إنى تقية ، ولكنى ، أيها الفارس ، لم أنذر لله نفسى !

— فليس عن برودة طبع ؟

— لا يا سيدى ! . . .

— لدى أسئلة لا أستطيع أن أوجهها إليك ، فإذا كان لديك مانع فقولى . . .

— آه . . . كنت أعلم أنه يصعب عليك حزر السبب !

— وبعد ، فما يكون السبب ؟

— إنى عذراء ! . . .

٦

وقد قالت هذا بثبات وحزم أدهشانى وأزعجانى ! .

ترى ، ماذا يدور فى هذا الرأس ، رأس الطفلة ، ووراء ذلك الوجه ، الشديد التحريض ، والشديد المقاومة ، الذى تزينه عينان صريحتان صادقتان ، وفيه ثغر شهوانى كأنه يتمنع ليغزى وينفث الاشتهاء ؟

وحرت فى أمرها وأمرى ، ولكنى أدركت مدى إعجابى بها ، وأنى فتنت بعثورى عليها ، وأننى سأخلق الفرص لأراها فى كل آن . . .

ووصلنا إلى بيتها . . . وكان بالباب بائع فاكهة.، فقالت :

— اشتر لى « يوسفيا » لأقدمه لك عندى !

ثم صعدنا . . . وكان البيت مريباً ، لا يبعث على الاطمئنان . . . وعلى الباب الأول بطاقة عليها اسم امرأة، من دون أية حرفة . . . وفى الدور الثانى تقطن بائعة ورد ، وبجانبها شقة منفصلة ، يخرج منها دوى ضحكات . . . فتساءلت : « أترى الفتاة تقودنى إلى موعد مفهوم ؟ » . . . ومع ذلك تريثت فى الحكم ، لأنى لا أحب الحكم على الناس باسم

الشارع الذى يقطنونه

ووقفتْ الفتاة عند الطابق الأخير . وضربتْ بقبضتها ثلاث ضربات على باب قاتم ، فتح بجهد :

ـــ أماه ! . افسحى لنا ، فهذا صديق ! . . .

وكانت الأم امرأة سمراء ذابلة ، عليها مسحة جمال غابر . . . فنظرت إلىّ بغير ارتياح . . . ولكن الطريقة التى دفعت بها الفتاة الباب ، ودعوتها إياى للدخول ، أظهرتا لى أن شخصاً واحداً هو سيد هذا الكوخ . . . وأن الوالدة الملكة قد تنازلت لابنتها عن عرشها ووصايتها . . .

ـــ انظرى يا أماه : اثنتا عشرة برتقالة ! . وانظرى أيضاً : جنيه ذهب ! . . .

فقالت الأم ، وقد شبكت أصابعها :

ـــ رباه ! . ومن أين لك ذلك كله ؟

فذكرت بإيجاز مقابلتنا فى القطار ، وفى المصنع . . .

ـــ ثم حوّلت مجرى الحديث إلى شؤونهما الخاصة ، فكانت لا تنتهى . . . فادعت الأم أنها أرملة مهندس تركها بلا معاش ولا مال ، وأنها عاشت أربعة أعوام عيشة وضيعة مما ادخره زوجها . وسواء أكانت حكاية صادقة أم كاذبة فقد سمعتها عشرين مرة ! . . . وكانت تنتهى بهذه الشكوى :

— ما العمل ؟ إنى لا حرفة لى ، ولا أعرف غير تدبير منزلى، والصلاة للعذراء . . . وقد أشاروا علىّ بالخدمة كبوّابة ، ولكن كرامتى تأبى أن أكون خادما ، فأنا أقضى أيامى فى الكنيسة ، وأوثر تقبيل بلاطها على أن أكنس ما وراء الباب . . . وأنتظر أن يشد ربى أزرى فى آخر عمرى . . . إننا امرأتان وحيدتان معرضتان ، وأى تعرض ، لسوءات الزمان ! . . . آه أيها السيد . . . إن الغواية ليست قليلة لدى من يعيرها أذنا صاغية . وقد كنا نصبح من الأغنياء ، أنا وابنتى ، لو أننا اتبعنا طريق الضلال ! . ولكانت لدينا أحذية عالية ، وعقود غالية !. ولكن المعصية ما قضت عندنا ليلة ! . . . نفوسنا مستقيمة كأصبع سيدنا يوحنا ، وأملنا عظيم فى الله الذى يعرف أحبابه !

وكانت « كونشا » أثناء ذلك الحديث قد أتمت زينتها بلباقة ، والتفتت ، وابتسمت منشرحة ، فتجلى ثغرها الوضّاء ...

ومضت الأم تعول وتنوح :

— آه ! يا لَلْهم الذى ينال منى عندما أرى ابنتى ذاهبة إلى المصنع فى الصباح ! . ويا للمثل السيئة التى تراها هناك ! . . ويا للكلمات البذيئة التى تتعلمها ! . . . فأولئك بنات لا حياء فيهن . . . ولو أن ابنتى أصغت إليهن لذهبت عنى من زمن طويل . . .

ـ ولمَ تُشغّلينها هناك ؟

ـ هناك وغيره سواء ! . . . وأنت تعلم ، يا سيدى ، ما يقع بين عاملتين تجلسان معاً اثنتى عشرة ساعة . . . وفيم تتكلمان ؟ فى المحظور إحدى عشرة ساعة وثلاثة أرباع ، وتصمتان باقى الزمن ! . . .

ـ إذا لم يكن غير الكلام فليس ثمة كبير ضير .

ـ إن من يقدم قائمة الطعام يقدم معها الشهية ! . ونصائح النساء تفسد البنات أكثر مما تفسدهن نظرات الرجال ! . . . ولست أطمئن إلى أحكم حكيماتهن ، فإن تلك التى تحمل المسبحة فى يدها تخبئ الشيطان فى كمها ، فلا صديقة بين العجائز ، ولا بين الصبايا . . . وذلك ما أريده لابنتى ، ومعها فى المعمل خمسة آلاف ! . . .

فقاطعتها قائلا :

ـ إذن فلا داعى لرجوعها إلى المعمل

ثم أخرجتُ ورقتين ماليتين وضعتهما على المنضدة

تعجبات ! . . . أيادٍ مشتبكات ! . . . عبرات ! . . . وتنهدات ! . . .

فلما وقفت هذه التأوهات صرّحت الأم ، وهى تهز رأسها ، بأنه مع ذلك لا بد من عودة البنت إلى مصنع

السجائر ، لأن هذا المبلغ وأكثر منه دين عليها لصاحب البيت ، والبقال ، والصيدلى ، والدلالة ! .

وقصارى القول أنى دفعت ورقتين أخريين ، واستأذنت على الفور ، ووليت الأدبار ! . . . وكبحت طبعاً جماح عواطفى فى ذلك اليوم ، حساباً وحياء . . .

* * *

وفى اليوم التالى ما دقت الساعة عشراً حتى طرقت بابها ، فقالت لى « كونشا » :

ـ لقد خرجت أميمتى إلى السوق ، فتفضل يا حبيبى !

ونظرت إلىّ ، ثم انفجرت ضاحكة :

ـ أتعرف ؟ إننى ألزم الجد بحضرة أمى . . . فماذا ترى ؟

ـ هذا صحيح !

ـ لا تحسبن هذا تأدباً ! فإنى ربيت نفسى بنفسى ، وهذا من حسن حظى ، لأن أمى المسكينة ما كانت لتقدر على تربيتى . . . إنى شريفة ، وهى تفخر بذلك . . . ولكن لو أنى كنت اضطجعت على حافة الشباك ، وناديت المارة ، لتأملتنى ، معجبة ، وقالت : « ياللطف ، وخفة الروح ! » . . . وإنى لأعمل كل ما يعجبنى من الصبح حتى المساء ، والفضل لى وحدى فى أننى لا أتبع ما يدور فى نفسى من الأهواء ،

لأن أمى لا تستطيع أن تمنعنى ، رغم ما سمعته من كلام !

ــ إذن ، يا صبية ، إذا جاءك عريس فهو يفاوضك أنتِ رأساً ! . . .

ــ نعم يفاوضنى أنا ! . . . فهل تعرفه ؟

ــ كلا ! . . .

وكنت جالساً أمامها على كرسى مكسورة يده اليسرى . ولكأنى الآن أرانى وقتذاك وظهرى إلى الشباك ، والشمس تلقى أشعتها المتكسرة على أرض الغرفة . . .

وجلست « كونشا » على ركبتىّ فجأة ، ووضعت يديها على كتفىّ ، وقالت :

ــ أحقاً لا تعرف العريس ؟ !

فلم أجب ، وبالغريزة ضممت ذراعىّ حولها ، وبيد جذبت رأسها إلىّ . . . فسبقتنى ووضعت بلهفة فمها المحرق على فمى ، ونظرت إلىّ ، فى حبتىْ عينىّ . . .

نزقة ، غامضة ، وكذلك عرفتها . . . أما حنانها الفجائى فقد طاح برأسى كالمسكر . . . فزدت فى ضمها إلىّ ، فكان خصرها يلين تحت ذراعىّ . . .

ثم هبت قائلة :

ــ لا ! لا ! . . . فاذهب !

ـ سأذهب ، ولكن معك ! . . . فهيا بنا !

ـ أأتبعك؟ وإلى أين ؟ ! إلى بيتك؟ هيهات ! . لا تجسب يا صاحبي لمثل هذا حساباً ! . . .

فأخذتها ثانية بين ذراعي ، ولكنها تملصت وصاحت :

ـ لا تمسَّنى وإلا ناديت ! ثم لا أراك ولا ترانى مرةأخرى !

ـ كونشا ! . كونشيتا ! . يا صغيرتى ! . أأنت مجنونة ؟ كيف ؟ أأجىء إليك كصديق ، وأخاطبك كغريبة عنى ، فترمين بنفسك بين أحضانى ، ثم تهمينى ؟

ـ إنى عانقتك لأننى أحبك ، ولكن ليس لك أن تعانقنى من دون أن تحبنى !

ـ وهل تحسبين أننى لا أحبك يا بنيّة ؟

ـ كلا . . . إننى أعجبك . . . أرضيك . . . أسليك . . ولكنى لست عندك بالوحيدة . . . أليس كذلك أيها السيد ؟ ! إن مثل شعرى الأسود على رؤوس بنات كثيرات . . . وفى الطريق تمر عيون نجلاء . . . ومصنع السجائر لا تنقصه بنات يماثلنني جمالا . . . والناس لا يخفون عنهن ذلك . . . فافعل ما بدا لك معهن ، وإذا أردت أعطيتك أسماءهن . . . ولكن « أنا » هى أنا ، ولا يوجد إلا « أنا » واحدة ، من « سان روك » إلى « تريانا » ! . . . ولذلك لا أريد أن أشترى كعروس

لعبة فى السوق . . . ومن يشترينى على ذلك فلن يجدنى !

وسمعتْ فى السلم خطى صاعدة ، فتحولت إلى الباب وفتحت لأمها ، وقالت :

ــ لقد جاء السيد يسأل عنك يا أماه ، لأنه رآك أمس شاحبة ، فحسبك مريضة . . .

* * *

. . . وخرجتُ بعد ساعة ثائراً مهتاجاً . وأنا أشك فى العودة يوماً من الأيام . . .

وا أسفاه ! . . . لقد عدت ، ثم عدت . . . ثم عدت . . . لا مرة واحدة ، ولكن ثلاثين مرة . . . وبرّح بى الهوى ، وكنت عاشقاً عشق الشباب ! .

لعلك عرفت مثل هذا الجنون ! . ماذا أقول ؟ لعلك تشعر به فى هذه الساعة التى أخاطبك فيها ، وتفهمنى جيداً . . . كنت فى كل مرة أغادر غرفتها أقول فى نفسى : « عشرون ساعة حتى الغد ! ؟ » . . . فما كانت تنتهى هذه الألف والمئتا دقيقة ! . . . ثم تدرجتُ حتى صرت أمضى النهار بطوله معهما . . . وكنت أدفع نفقاتهما ، حتى الديون التى أظنها باهظة إذا حكمت بما سددته منها . . .

وسرعان ما وثقتُ من أننى كنت أول صاحب لهاتين

المرأتين الوحيدتين الفقيرتين . ولم أجد صعوبة فى الامتزاج بهما ورفع الكلفة بينى وبينهما . وما كنت أشك فى الفتاة لعدم وجود أى حجاب بيننا . فكان بابهما مفتوحاً أبداً أمامى ؛ وكانت « كونشا » دائمة العطف مقيمة الود ، ولكن فى تحفظ . . ولم تكن تحول دون رؤيتى إياها خلال زينتها أو أثناء رقادها فى فراشها ، لأنها كانت تصحو متأخرة منذ أصبحت عاطلة . فكانت أمها تخرج ، وتجلس هى القرفصاء فى سريرها ، وتدعونى إلى الجلوس بجانب ركبتيها المضمومتين !

وكنا نتكلم دون أن أسبر غور قلبها ! . ولقد رأيت فى « طنجة » نساء مغربيات محجبات لا يبدو منهن غير أعينهن ، ولكنى كنت أرى من بريق تلك العيون صميم قلوبهن . . . أما « كونشا » هذه فلم تكن تخفى شيئاً ، لا من حياتها ، ولا من شكلها ، ومع ذلك كنت أشعر بأن بينى وبينها حائطاً سداً !

ولاح أنها تحبنى . . . . . . وربما أحبتنى . . . وحتى الآن لا أستطيع الحكم على ذلك . . . وكانت ترد دائماً على تضرعاتى بكلمة واحدة : « فيما بعد » ! . . . فلا أستطيع مخالفة هذه الكلمة ... وكنت أهددها بهجرها فتجيبنى بقولها : « اذهب » . . . ! وكنت أتوعدها بالعنف ، فكانت تقول

لى : « إنك لا تستطيع أبداً » ! . . . وكنت أغرقها بالهدايا ، فتقبلها معترفة بالجميل ، عند حد رضاها . . . ومع ذلك كنت إذا دخلت عندها انبعث من عينيها نور لا أثر فيه للخديعة . . . وكانت تنام فى الليل تسع ساعات ، وفى النهار ثلاثاً . . . وفيما عدا ذلك لا تفعل شيئاً ! . فإذا استيقظت فإنما لتتمدد فى قميصها على حصير رطيب ، وتحت رأسها وسادتان ، وتحت جنبها وسادة . . . ولم أستطع أن أشغلها بشىء ، فلا إبرة ، ولا لعبة ، ولا مرّ بيدها كتاب من اليوم الذى أخطأتُ فيه بإخراجها من المصنع . . . ولم يكن تدبير البيت يعنيها ، فكانت أمها تنظف الغرفة ، وتعد الفراشين ، وتهىء الطعام ، وتقضى كل صباح نصف ساعة فى تسريح شعر الفتاة الصغيرة وهى شبه ناعسة . . . وظلت مرة فى فراشها أسبوعاً ! . . . ولم يكن ذلك لمرض أصابها ، بل لأنها اكتشفت أنه ما دام سيرها فى الشوارع ، دون قصد أو غرض ، لا فائدة منه ، فالأحرى ألا تكون ثمة فائدة من تكلف الخطوات الثلاث بين سريرها وحصيرتها ، وما تتكبده من لبس يتلف عليها لذة الكسل والاسترخاء ! . . . والأسبانيات كلهن على هذه الشاكلة ، يحس من يراهن بين الناس أن رنة أصواتهن ، ونار أعينهن ، وخفة حركاتهن ،

تتولد من ينبوع فائر على الدوام . . . ولكنهن رغم ذلك لا يكدن ينفردن بأنفسهن حتى يستسلمن إلى الراحة التى هى للذتهن القصوى ، فيرقدن على كرسى طويل فى غرفة مسدلة الستائر ، ويحلمن بالحلى والجواهر التى قد يملكنها ، وبالقصور التى يجب أن يسكنَّها ، وبالعشاق المجهولين الذين يردن أن يكونوا لهن فرساناً . . .

وهكذا تمر بهن الساعات . . .

وكانت « كونشا » من جهة إدراكها لواجباتها اليومية أسبانية أصيلة . ولكنى لا أدرى من أى بلد أتاها إدراكها هذا للحب . فإننى بعد اثنى عشر أسبوعاً من العناية المتواصلة بها وجدت فى ابتسامتها ، فى وقت واحد ، تلك الوعود الخلابة ، وذلك الامتناع القاسى ، والمقاومة المضنية . . .

فحدث أن خرجتُ يوماً عن طورى ، إذ ضقت ذرعاً بعذاب الانتظار أكثر مما انتظرت ، والهيام بها فى كل لحظة ، ذلك الهيام الذى زعزع حياتى إلى درجة أصبحت معها حياةً فارغة تافهة ، بعد مضى ثلاثة أشهر على تلك الحال !

فانتحيت بالمرأة العجوز جانباً ، فى غيبة الفتاة ، وفتحت لها قلبى ، واندفعت فقلت لها إننى أحب ابنتها ، وإن فى نيتى ربط حياتى بحياتها ، وإنه لأسباب يصعب بيانها لا يمكننى

الارتباط بها رسمياً ، ولكنى أعتزم مشاطرتها حباً خالصاً عميقاً ، فلا حق لها فى الشكاية . . .

وختمت كلامى بقولى : « أعتقد أن « كونشيتا » تحبنى ، غير أنها على حذر منى . فإذا لم تكن تحبنى فلا أريد أن أرغمها على ذلك . . . وإذا كان ذنبى عندها أنها تشك فى فأقنعيها . . . »

وأضمت إلى هذه النجوى أننى فى مقابل ذلك أكفل لها حياتها الحاضرة وغناها مستقبلا . . . ولكى أبرهن على صدق تعهداتى أعطيت العجوز رزمة ضخمة من الأوراق المالية ، وأوصيتها أن تعمل بحكمتها على إقناع ابنتها بأن لا خوف عليها من خديعة أو خيانة . . .

وعدت إلى بيتى أشد ما أكون اضطراباً ! . ولم أذق تلك الليلة للنوم طعماً ، وبقيت أذرع الدار روحة وجيئة ، فى ليل بديع منعش ، لم يهدئ من ثائرتى جماله . . . فقد كنت أرسم خطط الوصول إلى السعادة . . .

وعند طلوع الشمس أمرت بقطف تلال من الزهور نثرتها على عتبة البيت ، والسلم ، وردهة الاستقبال . . . لأمهد تحت قدمى الحبيبة طريقاً من أرجوان ومن ذهب . . . ورحت أتصورها فى كل مكان : واقفة إلى جنب شجرة ، أو مضطجعة

فى مقعد ، أو مستلقية على العشب ، أو متكئة على السياج ، أو رافعة ذراعيها نحو الشمس ، تهز إليها جذعاً مثقلا بالثمار . . . فكأن الحديقة والبيت قد تشكلا بشكلها ، وانطبعا بروحها ! .

وبعد ليلة انتظار لا تحتمل ، وصباح شعرت أنه لا يمر ، وصلنى حوالى الساعة الحادية عشرة خطاب بالبريد ، فيه بضعة أسطر ما زلت أحفظها عن ظهر قلب :

« لو أنك كنت قد أحببتنى لانتظرتنى . . . نويت أن أهبك نفسى ، ولكنك طلبت أن أباع لك . . . .
فلن ترانى بعد اليوم . . . كونشيتا »

وبعد دقيقتين امتطيت جوادى ، فبلغت عند الظهر « أشبيلية » وأنا أكاد أهوى إلى الأرض من الحر والكرب ، فصعدت السلم مسرعاً ، وطرقت الباب عشرين مرة . . .
سكوت . . . سكوت . . .

وأخيراً فتح باب ورائى فى الطابق نفسه ، وأفهمتنى جارة أن المرأتين قد سارتا صباحاً فى طريق المحطة بأمتعتهما ، وأنها لا تعلم فى أى قطار سافرتا . . .
فسألتها :
ــ وهل كانتا وحيدتين ؟

ـ نعم ، كانتا وحيدتين

ـ لا رجل معهما . . . أأنت واثقة ؟

ـ رباه ، إننى ما رأيت عندهما رجلا سواك !

ـ ألم تتركا شيئاً لى ؟

ـ لا شىء ، فأظنهما على خلاف معك !

ـ ولكن . . . هل تعودان ؟

ـ الله أعلم . . . فما قالتا شيئاً

ـ أظن أنه لا مناص من عودتهما لأخذ أثاثهما ؟

ـ كلا ، فالبيت يؤجر بأثاثه ، وقد حملتا كل ما كان لهما . . . وهما الآن على مسافة شاسعة من هنا يا سيدى

٧

ومرّ الخريف وتبعه الشتاء ، وذاكرتى لم تنس شيئاً قلّ أو كثر . . . وظلت ذاكرتى تعذبنى . وكنت أحسبنى سأحيا حياة جديدة وأتمتع بالحب ، فهدم كل شىء فى حسبانى قبل أن يواتينى الزمان . . . وما تذكرت لحظة واحدة اتصلت فيها بهذه الصبية أو ارتبطت . . . لا شىء كان بيننا . . . أىّ شيء . . . ولا حتى ما يغرينى فى مجرد الوهم والخيال . . . فإذا كنت قد خسرتها الآن فلا عزاء لى فى أنى حظيت بها يوماً ما ، بحيث لا ينُزع ذلك التذكار منى !

وكنت أحبها ! . . . أواه ! . . . لشد ما أحببتها يا رباه ! . ووصل بى الأمر إلى الاعتقاد أن الحق بيدها ، وأنى الملوم ، وأنى تصرفت بخشونة مع تلك العذراء الباسلة ! . وكنت أقول لنفسى : « لو أن الله ينعم علىّ برؤيتها مرة أخرى لجلست عند قدميها حتى تومئ إلىّ ! . . . ولانتظرت السنين الطوال لا أزعجها ولا أكدر خاطرها ! . فإنى أفهم ما تشعر به . . . كانت عالمة بأنها من طبقة تؤخذ نساؤها محظيات ، فأبت أن تعامل معاملة دون ما ترفعها إليها أخلاقها ! . وأرادت

أن تمتحنى ، وتتأكد من محبتى ، حتى إذا وهبتْ نفسها لا تكون قد أقرضتها قرضاً سيئاً . . .

فلتكن إرادتها ! . وسأطيع رغباتها ! .

ولكن أترانى سألقاها ثانية ؟ ! هذا ما كان يمزق نياط قلبى ، ويشد بالضيق وثاق صدرى !

ثم رأيتها ! . . . مساء يوم من أيام الربيع ! .

كنت أتمشى الهوينا ، فى سكون الليل ، بشارع « تريجانو » ، وأنا أدخن . . . فإذا بصوت ناعم ينادينى باسمى :

ـ دون ماتيو !

فارتجفت . . . والتفت ... فلم أجد أحداً ... ومع ذلك ما كنت حالماً ولا واهماً . . . فصرختُ :

ـ كونشا ! . . . أين أنت يا كونشا ؟

ـ أيها الصغير ! . . . أتريد أن تصحو أمى ؟

وكانت تخاطبنى من شباك مرتفع ، ذى قضبان حديدية ، يبلغ أسفله إلى ارتفاع كتفى . . . ورأيتها فى مباذلها ، وعلى كتفيها شال من الحرير ، وهى متكئة على القضبان من الداخل . . . وقالت بصوت خافت :

ـ أهكذا عاملتنى يا صديقى ؟

وكنت عاجزاً عن الدفاع والاتهام . . .

– ميلى علىّ قليلا ، فإنى لا أكاد أراك فى الظلام . . . اقتربى من ضوء القمر . . .

ففعلت ، صامتة . . . وسكرت زمناً لا أعرف مداه بخمر رؤيتها ، وقلت لها :

– هاتى يدك !

فأخرجتها من القضبان ، فمررت بشفتى على أناملها ، وراحة يدها ، ومعصمها العارى الدافى ، وكأن بى مساً . . . لا أكاد أصدق أن ذلك كان لحمها ، وأن تلك كانت بشرتها ورائحتها . . . وأنها كلها كانت تحت قبلاتى بعد ليالى الأرق الطويلة . . . فعدت أقول :

– هاتى فمك . . .

فهزت رأسها ، وسحبت يدها قائلة :

– فيما بعد ! . . .

ويلاه من تلك الكلمة التى طالما سمعتها من قبل ، وها هى ذى تعود فى أول لقاء بيننا ، كسد منيع ! . . .

فزحمتها بأسئلتى :

ماذا فعلت ؟ ولمَ كان ذلك السفر المفاجئ ؟ فلو أنها كانت قد أخبرتنى بما تريد وتقضى لما عصيت لها أمراً ، ولا رددت لها حكماً . . . أما سفرها هكذا ، بعد خطاب

بسيط ، فقد كان قاسياً . فأجابتنى بقولها :

— الذنب ذنبك ! . . .

فوافقتُ . . . وما الذى كنت لا أعترف به أو أسلّ ؟ ! .

ولزمت الصمت . . .

ومع ذلك كنت أريد أن أعرف ما جرى لها فى ذلك الزمن المديد ، ومن أين هى آتية ، وكم مضى عليها فى ذلك المكان . . .

وقد أجابت :

— لقد ذهبنا بادئاً إلى « مدريد » وفيها أقارب لنا ، ثم عدنا إلى هنا . . . وهأنذا ! . . .

— أتسكنين البيت كله ؟

— نعم ، وهو على صغره كبير علينا . . .

— وكيف استطعت استئجاره ؟

— هذا من أفضالك ، وكانت أمى تقتصد من نفحاتك

— ولكن تلك حال لن تطول . . .

— لدينا ما يكفل لنا الحياة الشريفة شهراً

— وبعد الشهر ؟

— بعده ؟ أيدور فى خلدك حقاً ، يا صديقى ، أنه سيُسقط فى يدى ؟

فلم أحر جواباً ، وإنما وددت بكل جوارحى لو قتلتها ! .

وعادت تقول :

— أفلا تسمعنى ؟ . . . إذا أردتُ المكث هنا عرفت ما أفعل . . . ولكن أنَّى لك أن تعرف إرادتى فى البقاء أو الرحيل ؟ فقد قضيت فى العام الماضى ثلاثة أسابيع نائمة تحت أسوار المدينة أفترش التراب ! . وشملنى الحارس بعطفه، فحفظنى أن يعتدى علىّ معتد أثناء نومى . . . وكل ما أصابنى من الأخطار لم يخرج عن حد الكلام ! . . . وأستطيع من الغداة أن أعود إلى ذلك المكان ، أو إلى عملى فى مصنع السجائر ، أو إلى أى مكان آخر . . . فإنى أعرف بيع الموز ، وشغل الإبرة ، وتنميق طاقات الزهور . . . كما أعرف الرقص الهولندى والإسبانيولى . . . فاذهب يا « دون ماتيو » فى سبيلك، فإنى أعرف لنفسى خلاصها

وكانت تخاطبنى بصوت منخفض ، ومع ذلك سمعت رنين كل كلمة منه ، كما لو كنت أستمع إلى وحى يوحى ! . وكنت ، فى الطريق الخالى المضىء بنور القمر ، أنظر إلى حركات شفتيها أكثر مما أصغى إليها . . .

فقالت ، متنهدة ، وهى معتمدة برأسها على يدها ، تتخلل شعرها الغزير بأصابعها :

— سأكون يا « دون ماتيو » بعد غد خليلتك !

فارتجفت ، قائلا :

ــ هذا بهتان !

ــ لقد قلت !

ــ ولِمَ التوانى يا حياتى ما دمت قد قبلت ،. وأنت تحبيننى ؟

ــ لقد أحببتك دواماً . . .

ــ ولِمَ لا يكون ذلك فى الساعة التى نحن فيها ، وثمة فرجة بين القضبان والحائط تمكننى من الدخول . . . انظرى. . .

ــ تدخل منها مساء الأحد ، فإننى اليوم مثقلة بالذنوب أكثر من الغجرية راقصة القطار . . . ولا أريد أن أصبح امرأة على هذه الحال المحرمة ، فإذا جاء لنا ولد كتبت اللعنة على الولد ! . أما غداً فإنى سأطّهر من إثمى ، وأعترف للقسيس بذنوبى ، وأتسلف منه المغفرة لما سوف أفعله . . . أليس ذلك أسلم عاقبة ؟ . . . وفى صباح الأحد أتناول القربان ، فإذا ما سرى سرّ المسيح فى قدمى سألته أن يسعد مسائى ، وأن أحب طول حياتى ! . . . آمين !

نعم إنى أعرف أن هذا مذهب تعتنقه بعض الأسبانيات. . . يعتقدن أن المغفرة تنتظرهن إذا اعترفن للقسيس بأعز أسرارهن ! . . . فلو كان هؤلاء الأسبانيات على حق فانظر

كم يكون عدد اللواتى يأسفن يوم القيامة على حياة الزهد والعفاف !

وعادت « كونشا » تقول :

ـ دعنى يا « دون ماتيو » فأنت ترى حجرتى خالية ، فلا تكن غيوراً أو ملولا . . . وستجدنى هنا يا حبيبى مساء الأحد فى ساعة متأخرة من الليل . . ولكن عدنى ألا تخاطب أمى ، وأن تنصرف فى الصباح قبلما تصحو ، وليس ذلك خشية أن ترانى ، فأنت تعرف أننى سيدة نفسى ، ولا تعوزنى نصائحها ، سواء كانت لك أو عليك . . . فأقسم لى على ذلك !

ـ لك ذلك !

ـ أحسنت . . . فارتبط بهذا . . .

ونكست رأسها ، وأسدلت غدائر شعرها من القضبان ، كأنها جداول من العطر . . . فأخذتها بيدى وألصقت بها فى ، وأغرقت وجهى فى أمواجها الدافئة السوداء . . .

ثم أفلتت الأمواج من أصابعى ، وأغلقت النافذة . . .

٨

مر على ذلك صباحان ، نهاران ، ليلان ، لا ينتهيان . . .
وكنت سعيداً ، متألماً ، قلقاً . . . وأظن أن من بين المشاعر المتناقضة ، التى كانت تخالجنى كلها فى وقت واحد : الفرح ، ذلك الفرح الضجِر الذى يكاد يكون ألماً ، وكان يغمر بقية المشاعر . . . فى هذه الثمانى والأربعين ساعة مثلت لنفسى مائة مرة « ما سيجرى بينى وبينها » . . . المشهد ، الكلام ، وحتى السكوت . . . وكنت ، على رغمى ، ألعب فى مخيلتى الدور الذى ينتظرنى . . . فرأيت نفسى بين ذراعيها . . .
وفى كل ربع ساعة يعود المنظر نفسه فيتمثل بكافة تفاصيله فى مخيلتى المنهوكة . . .

واقتربت الساعة . . .

وكنت أضرب فى الشوارع هائماً ، ولا أجسر على الوقوف تحت شباكها خشية إساءة سمعتها .. ومع ذلك ضاق صدرى لعلمى أنها من وراء زجاج النافذة تنظر إلىّ ، وتدعنى مختنقاً باضطرابى . . .

وأخيراً نادتنى :

— ماتيو ! . . .

وفى تلك اللحظة كنت كأنى فى الخامسة عشرة وورائى عشرون عام غرام كأنها حلم من الأحلام ! وهيأت لى الأوهام أنى سألصق فمى بفم امرأة لأول مرة ، وأشعر بحرارة جسمها الغض يلتوى ويثقل فوق ذراعى . . .

ودخلت من الشباك ، كممثل دور المحب على المسرح ، وعانقتها ، وكانت واقفة ، ملتصقة بى ، تحنو آنة وتقبل ، وتجفو آنة وتدبر . . . وكان رأسانا مرتبطين بالفمين ، يميلان معاً ، ويترنحان ، والجفون مسبلة . . . وما أدركت ، إدراكى تلك اللحظة ، فى حالة الدوار والهوس التى كنت فيها ، المعنى المراد التعبير عنه حقاً بكلمة « نشوة القبلة » . . . وما عدت أدرى من كنا ، وماذا جرى ، وما الذى سيحدث لنا ؛ فالحاضر كان يستغرق الماضى والمستقبل معاً . . .

وكنت أشعر من وراء ثوبها بالنار المشتعلة من هيامها . .

وغمغمت قائلة :

— إنى أشعر بألم ، فأتوسل إليك أن تنتظر . . . أظننى سأقع ، فتعال معى إلى البهو لأتمدد على الحصير الرطب . . . انتظر . . . إنى أهواك . . . ولكن يكاد يغمى على . . .

فاتجهتُ إلى باب ، فصاحت :

—ليس هذا ، فهذه حجرة أمى.. فتعال من هنا .. سأقودك

وكانت كواكب السماء تنير مربعاً من البهو ، وباقى القاعة يسوده الظلام كاتم الأسرار . فتمددت «كونشا» كامرأة شرقية على الحصير ، وجلست بجانبها ، فتناولت يدى ، قائلة :

— أيها الحبيب . . . أتهوانى ؟

— أتسألينى فى هذا ؟

— وإلى متى تبقى على العهد ؟

وإنى لأشفق من تلك الأسئلة التى توجهها النساء جميعاً إلينا ، ولا تجد رداً عليها منا إلا بالهراء ! . . .

— وهل تصبر على حبى إذا ذوى جمالى ؟ . وهل إذا بلغت سن الكبر ، ونال منى الهرم ، تظل تحبنى ؟ .. قل لى يا قلبى ! ؟.. ولو لم يكن ذلك صدقاً وحقاً فقله ,.. لأنى بحاجة إلى سماعه منك لأشتد به أزراً . . . إن الليلة موعدنا ، ومع ذلك فوالله ما أدرى هل أجد من نفسى شجاعة ؟ . . . ومن لى بأن أعرف أنك حقاً خليق بذلك الذى تمنحه المرأة مرة واحدة فى حياتها .!.. أوّاه !.. وحق العذراء «مريم» لو أننى كنت مخدوعة فيك فيا لضيعة حياتى !. فلست من

البنات الخليعات اللواتى لا يرددن يد لامس ، فلن أحب بعدك أحداً ، فإذا هجرتنى قضى على قضاء مبرماً ! . . .

وعضت على شفتيها ، وهى تكظم التأوهات ، وتحدق فى الفضاء ، ثم تبسمت :

ــ إن عودى ينمو منذ ستة أشهر ، حتى لقد ضاقت علىّ ثيابى . . . فافتح هذا المشبك ، وتأمل محاسنى ! . . .

لو أننى كنت قد طلبت ذلك منها لأبت واستكبرت . . . وخالج الشك قلبى فى أن تنتهى هذه الليلة من الكلام إلى الغرام . . . ورددت يدى دون أن أمسها ، فدنت منى ، وقد حسرت عن صدرها . . .

أسفاً على ما كان ! . فإن الثديين اللذين كشفت عنهما كانا كثمرتين من أرض كنعان ! ولست أدرى أيضارع ثدييها فى الجمال ثديان ؟ ! بل إنى لم أرهما فيما بعد بمثل جمالها فى تلك الليلة . . . فالأثداء أحياء لها دوران من نضارة وذبول . . : وأظننى رأيت ذينك النهدين فى ذروة اكتمالهما :

وأخرجت تميمة تداعبها ، وتقبلها بشغف المتقين ، وهى ترقبنى أثناء ذلك من طرف خفى :

ــ إذن ، فأنا أعجبك ؟ !

فضممتها إلىّ ، فقالت :

– لا . . . ليس الساعة !

– ماذا بعد ؟

– لست على استعداد !

ثم أقفلت مشبك صدرها . . .

يا لله ! . . . لشد ما عانيت ! . . .

وتضرعت إليها متلهفاً ، وأنا أغالب يدها التى تحميها ، أريد أن أعززها وأولها فى وقت واحد ! . أما إصرارها على أن تفتننى وتصدنى فهو دور شيطانى ، ظل عاماً ، وتضاعف فى تلك اللحظة المشهودة التى كنت أنتظر فيها الخلاص ، فخيب حنوى الصبور . . .

وعندئذ قلت لها :

– أراك يا بنيتى تلعبين بى ، فحذار من أن أمل !

– أهكذا ؟ . . . إذن فإلى الغد ، يا « دون ماتيو ! . . . »

– إنى لن أعود إليك أبداً . . . .

– إنك ستعود غداً

فوضعت قبعتى على رأسى ، وخرجت ثائراً ، مصمماً على أن لا أعود فأراها . . .

وتمسكت بعزمى حتى ساعة النوم ، ولكن استيقاظى كان مؤلماً يرثى له !

ياله من يوم لا تمحى ذكراه !

فبالرغم من عهدى الذى قطعته لنفسى سرت فى طريق «أشبيلية» مجذوباً نحوها بقوة لا تقهر . . . وخيل إلىّ أن إرادتى قد تلاشت ، حتى لم أعد أستطيع توجيه خطاى أنّى أشاء !

وبقيت ثلاث ساعات أعانى الحمى ، وأعارك نفسى ، رائحاً غادياً فى طريق «آمور دى ديوس» ، خلف الشارع الذى تسكنه «كونشا» . . . أوشك أن أقطع الخطوات العشرين التى تفصلنى عنها ! . . . وأخيراً انتصرت على نفسى ، فسرت مهرولا إلى الريف ، دون أن أطرق شباكها المعبود !.. ولكن ياله من انتصار مخذول ! . . .

* * *

وفى اليوم التالى كانت عندى قائلة :

ـــ أما وقد أبيت المجىء فهأنذى قد جئت إليك . أتقول بعد الآن إنى لا أحبك ؟

فكدت أرتمى تحت قدميها . . .

وأضافت :

ـــ هيا ، أسرع وأرنى حجرتك . . . فلا أريد أن تتهمنى اليوم بالكسل . . . هل تحسبنى أيضاً لم ينفد الصبر منى ؟ !

لو علمت ما يدور بفكرى لنالت الدهشة منك !

على أنها لم تكد تدخل حتّى قالت :

— كلا ! . . . ليس فى هذه الغرفة ! . . . ما أكثر ما مرّ بهذا الفراش الملعون من نساء ! . وأراها ليست بالحجرة اللائقة بعذراء . . . فلنستبدلها بأخرى ، بحجرة ضيوف ، ليست خاصة بأحد . . . أتريد ؟

وكان علينا الانتظار ساعة طويلة حتّى يتم تنظيم الحجرة وإعدادها . . . ثم صعدنا إليها . . .

ولا أجسر على القول بأننى كنت واثقاً من النجاح تلك المرة ، ولكن كانت آمالى واسعة ، فهى عندى بمفردها ، بلا سند ، بإزاء شعورى اللهفان المتأجج نحوها .. وبدا لى أنه يبعد عليها المخاطرة بالحضور قبلما يستقر رأيها على التضحية التى تتظاهر بتقديمها إلىّ . . .

فلما اختلينا فكت أزرارها وتجردت بكل بساطة ، وأعترف لك بأننى بدلا من مساعدتها فى ذلك كنت أعرقل عملها ، وأننى استوقفتها عشرين مرة لأقبل ذراعيها العاريتين ، وكتفيها المستديرتين ، وأتأمل محاسنها تتكشف لى شيئاً فشيئاً ، وألقيت فى يقينى أن ذلك البدن الثائر المتمرد قد آن أن يستسلم لى . . .

قالت :

ـ والآن ألم أف بوعدى ؟

وأمرتْ بإغلاق النوافذ ، لأن النور الفضّاح يضايقها فى تلك الحجرة . . .

فأطعت . . . وفى تلك الأثناء رقدت صامتة فى السرير العميق ، فرأيتها من خلال الكلة الرقيقة كرؤيا مسرحية خلف ستار شفاف ! . . .

وبعد . . . فماذا أقول لك يا سيدى ؟ لسوف ترانى ولا ريب فى هذه المرة أيضاً موضع السخر والتلاعب والعبث. . . فقد قلت لك إن هذه البنتَ شر النساء ، وإن بدعها القاسية تفوق كل حد ! ؛ بيد أنك حتى الآن لا تعرفها حق المعرفة ، وإذ تابعتُ حديثى رأيتَ فى كل مشهد منه وعرفت «كونشا پريز» !

هأنتذا تراها جاءت إلىّ لتهب نفسها كما تقول ، وسمعت حديث حبها وعهودها ، وأنها وقفتْ حتى اللحظة الأخيرة موقف العذراء الوالهة ، أو العروس الصبية التى لا تجهل ما ستمنحه ومع ذلك فهى مضطربة رزينة . . . ولكن تلك الصغيرة الشقية كانت قد تدرعت بدرع من نسيج قلاع المراكب الخشن الصلب الغليظ ، كان محزوماً على وسطها بشرائط معقدة

مختلفة بحيث لا يمكن بأى حال حلها . . وهـــذا ما اكتشفته وأنا ذاهل العقل تائه الرشد من حرارة الوجد ، وهى تشرح لى بلا اضطراب :

ــ سأتهوس عند ما يريد الله ، ولكنى لن أتهوس عند إرادة الرجال ! . . .

فشككت لحظة من دهرى فى نية خنقها . . . ولكنى أقول الحق دون خجل : ألقيت بوجهى بين يدى منتحباً !

إن ما كنت أبكيه ، يا سيدى ، هو شبابى الذى أشهدتنى تلك الطفلة ذهابه إلى حيث لا رجعة ! . وبين الثانية والعشرين والخامسة والثلاثين مذلات يتجنبها جميع الرجال ! . ولا أحسب أن «كونشا» كانت تعاملنى بمثل ما عاملتنى به لو أننى كنت أصغر مما كنت بعشر سنين . . . فهذا الدرع ، هذا السد ، قد لاح لى أننى سأراه من ذلك الحين على كل امرأة ، أو أنهن يردن لبسه قبلما يقتربن منى ! .

فقلت لها :

ــ اذهبى ، لقد فهمت . . .

فانزعجتْ فجأة ، وطوقتنى بذراعيها الصغيرتين القويتين ولكنى رددتهما بصعوبة ! . فقالت لى ، باحثة عن فمى :

ــ أفلا تحب كل ما أمنحه لك من نفسى ؟ ! فإن

بين يديك شفتىّ ، وشعرى العطرىّ . أفلا يكفيك هذا ؟ إذن فلست أنا التى تحب ، ولكن ما أمنعه . . . إن كل النساء يستطعن أن يعطينك إياه . . . فلمَ تطلب منى ما أرفضه ؟ ألأنك تعرف أنى عذراء ؟ فهناك كثيرات غيرى من الأبكار ، حتى فى « أشبيلية » ! . وأقسم لك يا « دونماتيو » أنى أعرف بعضهن . . . ولكن أحببنى كما أريد أن تحبنى ، قليلا قليلا ، وصبراً جميلا ! . . . فأنت تعرف أنى لك ، وأنى حافظة نفسى لك وحدك . . . فماذا تريد منى أكثر من ذلك؟ ! . . .

فاتفقنا على أن نلتقى عندها أو عندى ، وأن يسير كل شىء طبق إرادتها . . . ورضيتُ مقابل وعدى ألا تلبس بعد اليوم ذلك الدرع الفظيع من تيل القلاع . . .

وهذا كل ما نلته منها ، بل إنها فى أول ليلة خلعته زادت عذابى !

هذا إذن مدى العبودية الذى وصلت بى إليه تلك الفتاة !

وإنى فى حديثى إليك أمر مرّ الكرام بطلباتها الدائمة للمال ، وإذا تركت هذا جانباً كانت لعلاقتنا قيمة خاصة . . . إذ كنت أحظى بعناق فتاة فى الخامسة عشرة ، إن كانت قد تربت عند الراهبات فقد كانت بالجسم والروح أبعد ما تكون

عن الفضيلة . . . وتلك الفتاة المشغوفة ، المتحمسة كما تهوى النفس ، كانت تعاملنى وكأن الطبيعة نفسها تحول بينها وبين إشباع ميولها !

ولم يكن لها عذر واضح له قيمة تبديه لمثل هذه المهزلة التى تمثلها ، وستعرف بنفسك سر هذا فيما يلى

وكنت محتملاأن يسخر منى هكذا !

فلا تغتر ، أيها الشاب ، قارئ القصص ، وممثل وقائع الهوى مع أنصاف البكارى ، على شواطىء البحر ، بما أنت عليه من سلطان . فإن الأندلسيات من نسيج آخر ، لامزاج لهن للحب المصطنع ، وهن عاشقات مفطورات على الحب الأصيل ، دقيقات الحواس ، لا يتأثرن بالمداعبة والغزل إن لم يكن صادراً عن حب عميق ، وعندئذ تعرف ما يعرفنه من فنون الغرام . . .

ولم يقع بينى وبين « كونشا » شىء ، أى شىء . . . فافهم معنى أى شىء . . . واستمر هذا أسبوعين كاملين !

وفى اليوم الخامس عشر ، وكنت قد منحتها فى العشية ألف ريال لتدفع ديون أمها ، عدت فوجدت البيت خالياً ، ينعى من بناه ! . . .

٩

كان ذلك فوق الطاقة . . .

ومن ذلك الحين صرت أرى جلياً ما يدور فى خلد الصغيرة الخبيثة ! . . . لقد لعبت بى كأننى تلميذ ! .

وكان خجلى أشد من ألمى !

ومحوت من ماضى حياتى هذه البنت الشقية الغادرة ، واجتهدت فى نسيانها من اليوم التالى ، إلى الأبد ! .

وبقوة إرادة طارئة ، ونية من النيات غير المألوفة التى تتوقع النساء دائماً فشلها ، سافرت إلى « مدريد » ، معتزماً أن أتخذ من أول شابة أصادفها وتلفت نظرى خليلة !

وتلك مناورة عتيقة يخدع بها العشاق أنفسهم ، وقلما تفلح

وظللت أبحث ، أدور من صالون إلى صالون ، ومن مسرح إلى مسرح ، حتى لقيت راقصة إيطالية ، فتاة كبيرة ذات ساقين عضليتين ، تصلح لمقصورة حريم شرقى ، ولكن تنقصها الصفات اللازمة فى خليلة وحيدة !

ولقد بذلت كل ما فى وسعها ، فكانت ذات عطف ودماثة ، وعلمتنى ما كنت أجهله من فحش نابولى . وتفننت

لتستبقيني ، ولم يكن همّ حياتها المادية هو الباعث الوحيد على حنانها الرقيق الحار !

وا أسفاه ! ليتنى استطعت أن أحبها ! . ومع ذلك لم يكن لى ما ألومها عليه ، فلم تكن خائنة ولا ثقيلة ، وظلت كأنها جاهلة عيوبى ، ولم تسبب لى خلافاً مع أصحابى . . وكانت لا تدع غيرتها تظهر ، وإنما تحزر . . . فيا لها من امرأة لاتقدر ! . . ولكنى ما شعرت نحوها بشىء! . .

وظللت أعيش شهرين مع « جوليا » تحت سقف واحد، فى غرفة البيت الذى إستأجرته ، فى بيئتها ، لى ولها ، فى غابة شارع « اويا دى ڤيجا » . . . فكانت تدخل ، وتمر ، وتسير أمامى دون أن أتبعها ببصرى . وكانت أثوابها وفساتين رقصها وقمصانها تلقى على الأرائك فلا تحرك شعرة فى بدنى . . .

وقضيت ستين يوماً فى فراش دافئ إلى جنب ذلك الجسد الأسمر ، فإذا ما انطفأ النور شعرت — فى خيالى — بحضور شخص آخر . . .

وبعدها انطلقت يائساً من ذات نفسى ! . فعدت إلى « أشبيلية » ، فلاح لى بيتى كأنه محلة أموات ! . فرحلت إلى « غرناطة » حيث ضقت ذرعاً ! ، ثم إلى « قرطبة » فوجدتها مقفرة محرقة ! . ثم إلى « جيريس » الساطعة التى

يفوح منها النبيذ ، ثم إلى « قادس » فألفيتها واحةً بيوتها في البحر !

كنت مسوقاً على طول طريقي ، من بلد إلى بلد ، لا بمزاجي ، بل بسحر بعيد لا يقاوم ، ولا أشك في وجوده ، كما لا يشك المؤمن في وجود الله !

أربع مرات في أسبانيا الواسعة قد لقيت « كونشا پريز » ، فما كانت سلسلة مصادفات عمياء ، لأنني لا أعتقد في رميات زهر يتولى المصير ! . فكأنما كان مقدوراً أن تأخذني هذه المرأة وتضعني تحت يدها مرة خامسة . . . وأن أرى كل ما سأحدثك به يمر مروراً في حياتي . . .

* * *

وكان ذلك في « قادس » ، إذ دخلت ذات ليلة مرقص البلد . .

كانت هناك ، يا سيدي ، ترقص أمام ثلاثين صياداً ، ومثلهم من البحارة ، وبعض السخفاء من الأجانب . فلما رأيتها ارتعشت ، وأظن أن وجهي اغبرّ فصار أشد سوادا من الغبراء ، وقطعت عليّ أنفاسي ، ووهن العظم مني . . . فجلست على أول مقعد إلى جانب الباب . ووضعت مرفقيّ على الخوان ، واستوعبتها بنظري من بعيد كأنها مبعوثة !

واستمرت في الرقص : شائقة ، ملتهبة ، وجهها بلون

الأرجوان، ونهداها مجنونان، وهى تضرب الصاجات الرنانة . .
وكنت واثقاً من أنها ترانى ، وإن كانت لم تنظر إلىّ ! .
وأتمت رقصها فى حركة مثيرة عنيفة ، وكأن تحريض ساقيها وجسمها يقصد شخصاً معيناً فى جمهور المتفرجين!
ثم وقفت بغتة وسط صيحات الطرب والإطراء ، وكانت القبعات تتطاير على المسرح ، والصالة واقفة كلها على قدم ، فكانت ترد التحيات ،وهى لا تزال تلهث، بابتسامة فاترة ، فيها الظفر والاحتقار معاً !
ونزلتْ كالمتَّبع بين صفوف الشاربين لتجلس جانباً حتى تقوم راقصة أخرى بدورها على المسرح ، وهى عالمة بأن هناك فى ركن القاعة رجلا يعبدها عبادة ، ويَقبل السجود عند موطئ قدميها أمام الدنيا قاطبة ، وقد تألم حتى ليكاد يصرخ بين الناس من شدة الألم . . . فمرت ، على عينيه ، من خوان إلى خوان ، ومن ذراع إلى ذراع !
وكانوا كلهم يعرفونها باسمها . وكنت أسمع كلمة « كونشيتا » فأشعر أنها تمر بقشعريرة من أخمص قدمىّ إلى مفرق شعرى ! .
وكانوا يقدمون إليها الشراب ، وكانوا يلمسون ذراعيها العاريتين ! .
وقد رصعت شعرها بزهرة حمراء أعطاها إياها بحار ألمانى !
وشدّت شعر راقص من رجال الملهى فتقرّد أمامها ، وتظاهرت بالهيام أمام فتى سخيف يجالس نساء ، ولاطفتْ خدّ رجل

وددت أن لو أقتله . . .

ولم أنس حتى الآن شيئاً من كل ما أتته فى تلك الدقائق الخمسين من الحركات والإشارات التى كانت توسعنى ألماً ! .

ومثل هذه الذكريات هى التى تملأ حياة الناس !

ثم تقدمتْ نحو خوانى بعد ما زارت كل المناضد لأننى كنت فى آخر الصالة . ولكنها على أى حال جاءت . . . فهل تراها كانت مرتبكة ؟ أم متظاهرة بالدهشة ؟ ! ! كلا البتة ! . . . إنك لا تعرفها ! . وجلستْ أمامى ، وصفقت للجرسون ، قائلة :

— تونيو ! فنجان قهوة !

وتحملت نظراتى بهدوء عزيز . فقلت لها بصوت شديد الخفوت :

— أما تخشين شيئاً يا كوإشا ؟ أما تخافين الموت ؟

— كلا ! . . . ولست أنت الرجل الذى يقتلنى !

— أتتحدينى ؟

— هنا يا دون ماتيو ، وأينما تشاء ! . . . إنى أعرفك كما لو كنت جنيناً حملته تسعة أشهر ! . . إنك لن تمس شعرة واحدة من رأسى ! . وأنت مصيب ، لأننى لم أعد أحبك !

— أتتجسرين على القول بأنك أحببتنى يوماً ؟

— اعتقد ما شئت ، فأنت وحدك المذنب !

إنها هى التى تعتب علىّ ، وكان علىّ أن أتوقع تلك المهزلة !

فعدت أقول :

— مرتين ، كررت معى هذا مرتين ، فأخذت كل ما أعطيتك من صميم قلبي كاللصة ، ورحلت من دون كلمة ولا رسالة ، ودون أن تكلفى إنساناً أن يقرئنى السلام . . . فماذا فعلتُ لتعامليني بمثل هذا أيتها الشقية ؟ . . . الشقية !

وكان لديها عذرها :

— ما فعلته أنت ؟ إنك خدعتنى . ألم تقسم أننى فى أمان بين يديك ، وأن تدعنى أختار ليلة خطيئتى وساعتها ؟ أتذكر آخر مرة ؟ أتحسبنى كنت نائمة ؟ أتحسبنى كنت غير شاعرة ؟ إننى كنت مستيقظة يا « ماتيو » ، وأدركت أننى إذا قضيت ليلة أخرى إلى جانبك فلن أنام دون أن أستسلم لك بغتة . . . وهذا سر فرارى !

وكانت تلك حقا حماقة ! . . ولكنى هززت كتفى وقلت :

— أهذا كل ما تؤاخذينى عليه وهأنذا أرى الحياة التى تحيينها ، والرجال الذين يمرون بحياتك ؟

فنهضت نافرة :

— هذا غير صحيح ! وإنى أحظر عليك هذا القول يا « دون ماتيو » . وأقسم لك بقبر أبى أننى عذراء كما ولدتنى أمى . . . وإننى أمقتك ، لأنك ارتبت فىّ ! .

فبقيت وحدى لحظات قمت بعدها فانصرفت !

١٠

قضيت سواد ليلى حائماً حول سور المدينة . وكان هواء البحر يلطف الحمى التى أصابتنى ، والجبانة التى أذلتنى ! . أجل ، فقد شعرت بأننى جبان أمام تلك المرأة !. وكنت لا أحس غير احمرار الخجل كلما فكرت فيها وفى نفسى . . . وكنت أسب نفسى بأشنع ما يمكن أن يوجه إلى إنسان !

وبعد كل ما وقع لم يكن لدىّ غير واحدة من ثلاث : أن أتركها ، أو أقهرها ، أو أقتلها . . .

ولكننى آثرت الرابعة ، وهى أن أتحملها ! . . .

وكنت أعود كل مساء إلى مجلسى من الحانة كطفل مطيع ، أنظر إليها ، وأنتظرها . . .

وزادت دماثتها شيئاً فشيئاً . . . دماثتها ؟! أعنى أنها لم تحمل لى موجدة أو توجه إلىّ لوماً على الضر الذى أوقعته بى ! !

وكان وراء المسرح غرفة كبيرة بيضاء ينتظر فيها أمهات الراقصات وأخواتهن وهن يتمايلن من النعاس . . وسمحتْ لى « كونشا » بالبقاء فيها ، وذلك امتياز خاص كانت كل فتاة

منهن تستطيع أن تمنحه لحبيب الفؤاد !

وهو وسط بديع كما ترى ! . وكانت الساعات التى قضيتها هناك من أشد ساعاتى نكداً !

إنك تعرفنى ، فوالله ما عشت قط عيشة الحانات السافلة هذه ، وأنا متكئ بمرفقىّ إلى خوان ! . لقد تقززت نفسى من نفسى . . .

وكانت السنيورا پريز ، أمها ، هناك كالأخريات ، وقد أظهرت لى جهلاً بما حصل فى بيت « تريانو » الذى هربت وابنتها منه ! . . . أتراها كاذبة هى أيضاً ؟ ! إنى ما عنيت بذلك ، وكنت أصغى لمساراتها ، وأدفع ثمن خمرها !

وكانت رقصات « كونشا » الأربع هى لحظات سرورى الوحيدة ، فأقف بالباب المفتوح الذى تدخل منه المسرح ، وفى خلال الحركات القليلة التى تدير فيها ظهرها إلىّ أتوهم أنها ترقص لى وحدى ! . . . وكانت تبلغ الأوج فى رقصة « الفلمنكو » . . . وأى رقصة يا سيدى ! وأى تراچيديا ! . . . إنها العاطفة كلها فى ثلاثة فصول : يشتهى ، ويفتن ، ويحظى . . .

فلا توجد أية قصة تمثيلية تبدى الحب النسوى بالقوة واللطف والعنف كما تبديه تلك المشاهد الثلاثة . ولم يكن

« لكونشا » فيها مثيل . . . وهذا النوع من الرقص لابد لإتقانه فيما يقال من ثمانية أعوام طوال . . . وهذا معناه — إذا حسبنا سرعة النضج عند نسائنا — أنهن عند ما يتقنه يكن قد ذوى حسنهن . . . ولكن « كونشا » ولدت بفطرتها راقصة مجيدة ! . ولم تكن متمرنة وإنما كانت ملهمة . . . وأنت تعرف راقصات « أشبيلية » ، فليس فيهن من بلغت فيه شأو الكمال ، لأن تلك الرقصة الشاقة تستمر اثنتى عشرة دقيقة بلا انقطاع ! . فانظر أين تجد بين راقصات الأوبرا من تستطيع هذا ، فتمثل ثلاثة أدوار لا رابطة بينها : دور الساذجة ، ودور العاشقة ، ودور ممثلة المأساة ! . يجب أن تكون فى السادسة عشرة لتمثل الدور الأول ، كما يجب أن تكون فى الثلاثين لتمثل آخر الفاجعة ! . . .

وكانت « كونشا » تعد المرأة الوحيدة التى هى هى فى كل تلك الأدوار الشاقة ، إبداعاً وكمالا . . .

كنت أراها دائماً تتقدم وتتأخر بخطى صغيرة ، متوازنة ، وتنظر من طرف خفى جانبى ، من تحت كمها المرفوع ، ثم تنحنى فى أناة بصدرها وجنبها وساقها ، وتنظر بعينيها السوداوين من فوق ذراعها . . . فأراها رقيقة أو مولعة ، وعيناها ممتلئتان خفة روح أو مثقلتان إعياء ، وهى تدق بكعبيها خشبة

المسرح ، وتفرقع بأصابعها فى آخر كل حركة كأنما هى تعطى صيحة الحياة لكل ذراع من ذراعيها المتموجتين !

إنى أراها تخرج من المسرح فى حالة اهتياج وتراخ تزيدها جمالا ، ومحياها الأرجوانى مغطى بالعرق ، ولكن عينيها متألقتان ، وشفتيها مرتعشتان ، وثدييها مضطربان ! ، وكل ذلك يجعل لها مظهر الشباب الملتهب بالحركة والحيوية . . . إنها كانت آية الآيات . . .

واستمرت علاقتنا هكذا شهراً . . . فكانت تسمح لى بالجلوس خلف المسرح ، ولم تمنحنى حق صحبتها إلى باب بيتها ! . وما كان لى أن أمكث بجانبها إلا بشرط ألا أعتب عليها أى عتب ، لا عن الماضى ولا عن الحاضر . . . أما عن المستقبل فقد كنت أجهل ما كانت تعده له . . . وما كانت لدىّ أية فكرة عن أى حل لهذه المغامرة التى يرثى لها !

وكنت أعرف ، معرفة غامضة ، أنها تسكن مع أمها بالضاحية الوحيدة بالمدينة ، قرب ميدان طوروس ، بيتاً كبيراً أبيض أخضر ، يضم عائلات ست راقصات غيرها . أما ما كان يجرى فى تلك المدينة النسوية فلا أجسر على تصوره ! . ومع ذلك فإن راقصاتنا يحيين حياة منظمة ، فهن من الثامنة

مساء إلى الخامسة صباحاً فى المسرح ، ثم يعدن إلى بيوتهن عند الفجر وقد أجهز عليهن التعب ، فينمن وحيدات غالباً حتى وقت العصر ، فلا يبقى أمامهن للتبذل إلا آخر النهار ! . ثم إن الخوف من الحبل المتلف يردعن ؛ ولا يستطعن فوق ذلك أن يزدن ليلهن تعباً على ضنى . . .

بيد أنى ما كنت أفكر فى ذلك دون قلق ! . وكان « لكونشا » صديقتان لهما أخ أصغر منهما يعيش فى غرفتهما أو غرف جاراتهما ، ويشعل نار الغيرة بينهن على ما شهدته غير مزة . وكن يسمينه : « الأسمر الصغبر السن » ! . وبقيت لذلك جاهلا اسمه . وكانت « كونشا » تدعوه إلى مائدتها وتطعمه على حسابى ، وتأخذ من سجائرى فتضعها بين شفتيه ! . وعن كل حركات تذمرى كانت تجاوبنى بهز كتفيها ، أو بعبارة باردة تضاعف آلامى :

— إن « الأسمر الصغير السن » للناس جميعاً . فإذا اتخذت عاشقاً كان لى وحدى ، كخاتمى فى أصبعى . . . وأنت تعرف ذلك يا « دون ماتيو » . . .

فكنت ألزم الصمت . . . غير أن الأقوال التى كانت تدور حول حياة « كونشا » الخاصة كانت تمثلها بحصن لا يقتحم ! ، وكان بودى لو أعتقد ذلك ! . ولم يكن يدنو

منها رجل وينظر إليها نظرة العاشق المعنوية لمن يلتقى بين الناس المرأة التى قضى معها ليلة البارحة . . . وقد تشاجرت بسببها مع طالبى حبها الذين كنت بلا ريب أضايقهم ، ولكن لم يحدث أن تشاجرتُ قط مع رجل تباهى برؤيتها متجردة . . . وكثيراً ما حاولت أن أدفع صاحباتها إلى الكلام ، فكان الجواب دائماً : « إنها عذراء . . . وهى على صواب »

أما أنا فلم يفتح أمامى قط موضوع القرب منها والوصال ! وما كانت تطلب شيئاً ، وما كانت تمنحنى شيئاً . فأصبحت تلك التى كانت فيما مضى اللعوب المرحة : رزينة قليلة الكلام . . . فماذا كان يجول بخاطرها ؟ وماذا كانت تنتظر منى ؟ . وكانت محاولة قراءة ذلك فى عينيها ذاهبة سدى ! . وما كنت لأرى جلياً فى روحها أكثر مما أرى فى عينى هرة مكنونتين ، مغمضتين ! .

* * *

وفى ذات ليلة ، تبعاً لإشارة من مدير المرقص ، غادرتْ المسرح مع ثلاث من زميلاتها ، وصعدتْ إلى الدور الأول ، لتنام قليلا ، على ما قالت لى . . . وكثيراً ما كانت تتغيب ساعة مثل هذه ، فما كان يخالجنى فى ذلك شك . . . لأنى رغم كذبها وزيفها كنت أصدق أقل كلماتها : « أما ونحن

نتعب فى الرقص ، فهم يتركوننا لنستريح قليلا ونستجم ، وإلا كنا نروح على المسرح فى عالم الأحلام »

فلما صعدت كعادتها خرجت أستنشق هواء أنقى ، وتركت القاعة نصف ساعة ، وفى عودتى صادفت فى الممشى راقصة ساذجة ، وكانت فى تلك الليلة نشوى ، وقالت لى :

– لقد بكَّرت فى العودة !

– ولماذا ؟

– لأن كونشيتا لا تزال فى الدور الأعلى !

– سأنتظر يقظتها ، فدعينى أمر ...

فبدا عليها أنها لم تفهم ... وقلت :

– نعم ! ... وما بلك ؟ !

– ولكنها غير نائمة ! ...

– إنها قالت لى ...

– أقالت لك إنها صعدت لتنام ؟ . آه . حسن ! حسن !

وبدأت تتحفظ ، ولكن بالرغم من ضم شفتيها فإن الضحك انفجر من فمها ... فبهت ، وصرختُ فيها ، وأنا قابض على ذراعها :

– أين هى؟ قولى سريعاً !

— لا تؤذنى أيها السيد ! . إنها تعرض حسنها على السُّياح الأجانب . والله يشهد أنها ليست غلطتى . فلو عرفت أنك تجهل ذلك لما قلت لكِ . . . فلست أريد مغاضبة أحد ... وإنى لفتاة طيبة القلب أيها الفارس !

فبقيت بلا حراك ، وقد أغار علىّ برد شديد . كما اندست بينى وبين ملابسى أنفاس كهف مثلجة . . . ولكن صوتى لم يرتعش ، فقلت :

— سيرى بى إلى فوق

فهزت رأسها . فأعدت عليها :

— لن يعرف أحد أنك خاطبتنى ، فأسرعى ، إنها حبيبتى ، وأنت فاهمة ، فلى حق الصعود . . . سيرى بى !

ووضعت فى يدها جنيهاً ذهباً

وبعد برهة كنت وحدى فى شرفة مطلة على فناء داخلى ، فرأيت ، يا سيدى ، مشهداً جهنمياً ! .

كانت هناك قاعة رقص أخرى أصغر من السفلى ، وأسطع نوراً ، ولها مسرح صغير . . . وفيها موسيقيان يعزفان ، وفى وسطها كونشيتا عارية البدن ، وثلاث نساء أخريات متجردات أيضاً ، يرقصن رقصاً جنونياً ، أمام سائحين أجنبيين جالسين فى أقصى القاعة . . .

كانت عارية ، بل أكثر من عارية ! . وقد لبست جورباً أسود اللون طويلا ضارباً فوق ساقيها ، وفى قدميها حذاء صغير رنان يضرب على خشبة المسرح . . . فما جسرت على وقفها عن عملها ، وخشيت أن أقتلها !

يا أسفا ! . . . يا رباه ! . . . فما رأيتها قط بمثل هذا الجمال ! . . . فلم يكن الأمر أمر عينيها وأناملها ، إن جسمها كله كان متأثراً كأنه وجه . . . وكان رأسها ملقى على كتفها كأنه لا فائدة منه ، وهو مغطى بشعرها . . . فكانت فى ثنايا جسمها بسمات ، وفى استدارة أعضائها احمرار خدها ، وكأنما ينظر صدرها بعينين سوداوين نجلاوين ثابتتين . . . إنى ما رأيتها قط بمثل ذلك الحسن ! فثنايا الملابس على جسم الراقصة تعكس جمال حركة الجسم الطبيعية المؤثرة . . . ولكن هنا إشراق . . . فكنت أرى الحركات ، والرعشات ، واهتزازات الذراعين ، والساقين ، والقوام اللدن ، والخصر العضلى ، تتولد بلا انقطاع من ينبوع منظور ، هو قلب الرقص : بطنها الصغير الأسمر ! . . .

. . . فطعنت الباب !

أن أنظر إليها عشر ثوان وأمسك نفسى عن قتلها ، هذا كل ما وسعنى . . . أما الآن فلا شيء يمنعنى ! .. وقوبلت

بصيحات ثاقبة ، ولكنى اتجهت تواً نحو « كونشا » وقلت لها باختصار :

ـ اتبعينى ، ولا تخافى شيئاً . إنى لا أريد بك شراً ، ولكن تعالىْ حالا ، وإلا فاحذرى !

آه ! كلا ! إنها ما كانت تهاب شيئاً . فاستندت إلى الحائط ، وبسطت ذراعيها على طولها ، وصاحت :

ـ لن أغادر مكانى أكثر مما غادر المسيح صليبه ! ولن تمسنى ، لأننى أحظر عليك التقدم أبعد من هذا المقعد . . . دعينى أيتها السيدة . انزلوا جميعاً ، فلا حاجة لى بإنسان ، فإنى كفيلة بتسوية الأمر بينى وبينه !

١١

وتركونا وحيدين . . . وكان أولَ من اختفى السائحان الأجنبيان . . .

وإنى حتى تلك الساعة ، يا سيدى ، كنت أعد الرجل الذى يضرب المرأة ، أيا كان ، رجلا شقياً . ولا أدرى بأية قوة استطعت أن أملك نفسى أمامها . فكانت أصابعى تفتح وتقفل كأنها تريد أن تخنق عنقاً . . . فنشب عراك عنيف بين غضبى وإرادتى !

أواه ! . إن العصمة التى تدرع بها النساء إنما هى الرمز العالى لقدرتهن على كل شىء . . . إن امرأة تسبك فى وجهك ، وتهينك ، فحيها ! ... فتضربك ، فاحم نفسك وتحاش أن تجرحها ! . . . فتنزل بك الخراب ، فدعها تفعل ! . . . فتخدعك ، فلا تفش شيئاً خشية أن تفضحها ! . . . فتحطم حياتك ، فانتحر . . . من فضلك ! . . . ولكن لا تمس بشرة المخلوقات الناعمة المتوحشة فى آن ، أولئك اللواتى يلذهن الألم عن الإشهاء ! . . .

ونرى الشرقيين ، الذين يبذون أهل الأرض جميعاً غراماً

واشتهاء ، لا يرعون لهن الحرمة التي نرعاها ، فقلموا أظافر النساء ليجعلوا عيونهن أشد عطفاً ولطفاً ! . . . وإنهم ليكبحون جماح خبثهن ، ليطلقوا مكبوت ميولهن . . . وإنى بهم لمن المعجبين ! .

ولكن «كونشا» بقيت ، فيما يتعلق بى ، كحرم مصون !

فلم أدن منها . وخاطبتها من بعد ثلاث خطوات . وظلت هى واقفة عند الحائط ، يداها مشتبكتان خلفها ، وصدرها منتفخ ، وقدماها مضمومتان ، معتدلة القامة ، منتصبة فوق جوربها الأسود ، كأنها زهرة منبثقة من زهرية بلورية رقيقة . . .

فبدأتُ الكلام :

— والآن ؟ ... ما قولك ؟ ... هلمى ! . اخترعى ! ... دافعى عن نفسك ! ... اكذبى ! . إنك لتحسنين الكذب !

فصاحت :

— آه ! إن هذا لقول عجاب ! . إنه يتهمنى الآن ! ... فهو يتسلل إلى هنا من النافذة كاللص ، محطما كل شىء ، ويهددنى ، ويفسد على رقصى ، وينفر منى صحبى . . .

— صمتاً . . .

— . . . وربما تسبب فى طردى من هنا ، وعلىّ الآن أن أجيب ! . . . إننى أنا التى أحدثت الضر . . . أليس

كذلك ؟ . . . هذا المشهد السخيف ، كأنما أنا التى أحدثته ...
أواه ! . . . دعنى ! فما أحمقك ! . . .

وكان العرق ، بعد هذا الرقص الهائج ، يتصبب فى لآلىء على جسمها اللامع ، فأخذت من المقصف منشفة وفركت جسمها ، من بطنها إلى رأسها ، كأنها خارجة من الحمّام ! . . .

ــ أكذا أنت تفعلين فى هذا البيت الذى أراك فيه ؟ . . . أهذه حرفتك ؟ ! أهذه هى المرأة التى أهواها ؟ !

ــ إيه ؟ إنك إذن لم تكن تعرف شيئاً أيها البرىء ! . . .

ــ أنا ؟ . . .

ــ لا ! لا سمح الله ! . إن أسبانيا كلها تتحدث بذلك وتردده ، وهذا شىء معلوم من باريس إلى بيونس ايريس . . . وأول صبى فى الثانية عشرة تلقاه فى « مدريد » يقول لك : إن النساء يرقصن عرايا فى أى مرقص من مراقص « قادس » . . . أما أنت فتريد أن تفهمنى أنه لم يقل لك أحد شيئاً ! . أنت... الذى ليس متزوجاً . . . أنت . . . يا ابن الأربعين حولا !

ــ كنت قد نسيت . . .

ــ إنه قد نسى ! . . . إنه يأتى إلى هنا منذ شهرين ، ويرانى أصعد إلى الصالة الصغيرة أربع مرات فى الأسبوع . . .

ـ اسكتى يا «كونشا» . . . إنك تؤلمينى أشد الألم !

ـ بدورك إذن ! . فإنى سأنتقم يا «ماتيو» لما فعلته بى هذا المساء ! . لأنك قد أسأت إلىّ إساءة فاضحة بغيرتك الحمقاء . . . وإنى لأتساءل : بأى حق ؟ ! من أنت ؟ . . . من أنت أخيراً لتعاملنى هكذا ؟ ! أأنت أبى ؟ كلا ! . أأنت زوجى ؟ كلا ! . أأنت عشيقى ؟ ! . . .

ـ أجل ! . أنا عشيقك ! . . . أنا هو . . .

ـ أحقاً ؟ ! . . . إنك لتفرح بالقليل ! . . .

وانفجرت ضاحكة !. . فشحب لونى من جديد :

ـ كونشا ! . . . يا ابنتى ! . قولى لى . . . حدثينى : ألك غيرى ؟ . فإذا كان لك آخر فإنى أقسم أن أتركك ! . كلمة منك تكفينى !

ـ إنى لنفسى . . . وإنى لحافظة عليها . . . فليس لدىّ شىء أثمن من نفسى . . . «دون ماتيو» ! . . . لا يوجد إنسان من وفرة الغنى بحيث يشترينى من نفسى !

ـ ولكن أولئك الرجال . . . ذانك الرجلان اللذان كانا هنا منذ قليل ؟ . . .

ـ وماذا بعد ؟ . . . أأعرفهما ؟

ـ أحقاً ؟ أفلا تعرفينهما ؟

ــ كلا ، إننى لا أعرفهما ، وأين تحسبنى رأيتهما ، فهما أجنبيان جاءا مع دليل الفندق ، ويسافران غداً إلى « طنجة » . . . ولم يحدث تواطؤ ، يا صاحبى ! . . .

ــ وهنا ؟ هنا بالذات ؟

ــ سبحان الله ! . . . انظر ! . . . أهذه غرفة ؟ . فتش فى المنزل كله ، أتجد سريراً ؟ . . . وبعد ، فإنك رأيتهما يا « ماتيو » . . . وكانا فى ثياب السهرة السوداء كتمثالين من خشب ، على رأسيهما قبعتان ، وذقناهما على العصى . . . إنك مجنون ! . . . أقول لك إنك مجنون لتأتى بمثل هذه الفضيحة ، وليس فى الأمر ما يستحق الملام !

لو أنها كانت دافعت عن نفسها بأسوأ من هذا لبرأتها ، ورأيتها محقة ! . فلشد ما كنت فى حاجة إلى مثل هذا الصفح ! وما خشيت إلا اعترافاً جديداً منها ! . وكان ثمة سؤال آخر يؤلمنى سلفاً قبل توجيهه ، فوجهته مرتجفاً :

ــ و « المورنيتو » ؟ . . . قولى الحقيقة يا « كونشا ! » ، فإنى أريد هذه المرة أن أعرف ، أقسمى أن لا تخفى عنى شيئاً . . . إنك لا تتحرجين من القول إذا كان هناك شئ . . . أتوسل إليك يا بنيتى الصغيرة ! .

ــ المورنيتو ؟ « الأسمر الصغير السن » ؟ ! . . .

إنه كان فى سريرى هذا الصباح . . . !

فبقيت برهة بلا رشد ، ثم ضممت ذراعى حولها ، وضغطتها ، وما أدرى أنا نفسى أكنت أريد خنقها أم خطفها من شخص وهمى ! . . .

وفهمتْ ذلك ، فصاحت ضاحكة :

ـ دعنى : دعنى يا ماتيو ! إنك لخطر هذه اللحظة ! . فأنت تقهرنى فى نوبة غيرة . . . والآن ، ابق حيث أنت ، فسأفسر لك الأمر يا صاحبى المسكين ، ولا حاجة إلى ارتجافك هكذا ! . أؤكد لك . . .

ـ أتزعمين ؟

ـ إن « الأسمر الصغير السن » يسكن مع أختيه ، وهم فقراء . ليس لديهم غير سرير واحد لهما وله ، لا يسعهم جميعاً . . . ومنذ اشتداد الحر آثرت الأختان ألا تناما مضمومتين بعد رقص ثمانى ساعات ، فهما تبعثان بالصغير إلى الجيران . . . وفى هذا الأسبوع بقيت أمى تواصل صلاتها الدائمة بالكنيسة ، فلم تنم معى . ولذلك سألتنى إحداهما عن مكان لدىّ لأخيهما ، فأجبت طلبهما ، ولا أرى فى ذلك ما يدعو إلى قلقك !

فنظرت إليها دون أن أنبس ! . فعادت تقول :

— إن كان هذا كل شيء فليطمئن بالك ! . . .
فإني لا أرضى بأكثر مما ترضى به أختاه . . . وإني لصادقة فيما أقول . . . فهو لا يقبلني أكثر من أربع أو خمس قبلات قبل النوم ، ثم أدير له ظهري . . . كأننا متزوجان ! . . .

ثم شدّت جوربها على فخذها الأيسر ، وأضافت في أناة :

— كما لو كنت معك ، سواء بسواء ! . . .

أيكون هذا عدم إدراك من هذه المرأة ، أم يكون جرأة ، أم يكون خبثاً . . . لأنني لا أدري علام أحمل ذلك ؟ ! . إذ أن هذه كلها قد أضلت شعوري ، وإن لم تخفف من آلام نفسي ، فكان شقائي أشد وأنكى من تخبطي ، ولكنه شقاء مبك . . فأخذتها على ركبتيّ ، بكل حنان ، فاستسلمت :

— اسمعيني يا ابنتي . . . إنني لا أستطيع بعد أن أعيش هكذا كما عشت على هواك ! فعليك أن تكلميني بكل صراحة . . . وقد يكون ذلك لآخر مرة . . فإني آلم ألماً فاجعاً ! . وإذا لبثت يوماً آخر في هذا المرقص ، وفي هذه المدينة ، فلن تريني بعد . . . أفتريدين ذلك يا « كونشيتا » ؟

فأجابت بنغمة جديدة ، حتى خيل إليّ أنني أستمع إلى امرأة غيرها :

— دون ماتيو ! إنك لم تفهمنى بعد . فقد زعمتَ أنك تطاردنى ، وأننى أرفض أن أكون لك ، فى حين أننى أنا التى أحببتك ... إننى أحبك ، وأريدك طول حياتى . . . فاذكر « مصنع السجائر » : أأنت تقدمت إلىّ ؟! أأنت سرت بى معلك ؟! لا . . . بل أنا جريت وراءك ، وسقتك إلى أمى ، وتمسكت بك بقوة ، بقدر ما كنت أخشى أن أفقدك . . . وفى اليوم التالى . . . أتذكر ؟ . . . لقد دخلتَ علىّ ، وكنت وحدى ، فلم تقبّلنى ! وإنى ما زلت أراك إلى الآن جالساً فى المقعد الكبير ، وظهرك إلى النافذة ، فارتميت عليك ، وأخذت رأسك بين يدىّ ! . . . ولكنى كنت — وما قلت لك ذلك من قبل — لا أزال حديثة السن . وفى خلال تلك القبلة يا « ماتيو » شعرت لأول مرة فى حياتى بالنشوة تسرى فى كيانى . . . وكنت على حجرك كما أنا الآن . . . .

فضممتها إلىّ ضاغطاً عليها ، وقد حطمنى التأثر ! . إنها استردت سلطانها علىّ بكلمتين . . . كانت تلعب بى كيفما تشاء ! . وعادت تقول :

— ما أحببت قط ، ولن أحب أبداً سواك . أحببتك منذ ليلة ديسمبر تلك التى رأيتك فيها فى عربة سكة الحديد ، وأنا خارجة لساعتى من مدرسة الراهبات !.. وقد أحببتك بادئاً

بجمالك . . . وأن لك عينين فيهما من اللمعان والحنان ما جعلنى أتخيل كل النساء مفتونات بعينيك . . . آه ! . لو علمت كم من ليال قضيتها أفكر فى هاتين العينين ! . . . وبعد ذلك أحببتك خاصة لطيبة قلبك ! . وما كنت أريد أن أربط حياتى بحياة رجل جميل ، أنانىّ . . . وأنت تعلم أنى أشد حباً لنفسى ، بحيث لا أرتضى نصف السعادة . . . وكنت أريد الهناءة كلها ، وسرعان ما لاحظت أننى لو سألتك إياها لأعطيتنيها . . .

— فلماذا إذن هذا السكوت الطويل ؟

— لأنى لا أقنع بما تكتفى به غيرى من النساء ! . وإنى لا أنشد الهناءة كلها وحسب ، بل أريدها طول حياتى . . . أريد أن أتزوجك يا « ماتيو » حتى أحبك . . . ولو حين تزهد فى حبى ! . لكن لا تخف شيئاً ! ، فلن نذهب إلى الكنيسة ، ولا نقف أمام مسجل العقود ! . إنى مسيحية تقية ، ولكن الله يحمى الحب الصادق . وسأدخل الجنة قبل كثير من المتزوجات ، ولا أطلب منك أن تتزوجنى أمام الناس ، لأننى أعلم أن ذلك لا يمكن أن يكون . . . إنك لن تدعونى قط : « الدونا كونسبسيون دى دياز » ، المرأة التى رقصت عارية فى بيت الرجس المروع الذى نحن

فيه ، أمام كل الأجانب الذين مروا بهذه المدينة . . .

وانفجرت باكية ، فقلت لها مضطرباً :

ــ كونسبسيون ، يا ابنتى ، هدئى من روعك ، فإنى أحبك ، وأعمل كل ما تريدين . . .

فصرخت فى شهقة ناحبة :

ــ لا ! لا أريد ذلك ! . . . هذا أمر مستحيل ! . لا أريد أن تدنس اسمك باسمى . . . فانظر ، أنا الآن التى لا تقبل كرمك ! . ماتيو ، إننا لن نتزوج للناس ، ولكنك ستعاملنى كامرأتك ، وتقسم لى أن تقيم معى دائماً ، ولست أطلب منك أمراً إداً ، ولا أجراً . . . ولكن أسألك بيتاً صغيراً لى ، بالقرب منك ، وصداقاً ، الصداق الذى تقدمه لمن تتزوجها . . . وإنى مقابل ذلك لا أجد ما أعطيه لك ، لا شيء ، إلا غرامى الأبدى . . . مع عفافى الذى صنته لك رغم كل الناس ! . . .

١٢

ولم يسبق لها أن خاطبتنى بمثل تلك اللهجة ، بكل هذا التأثر ، وكل ذلك الإخلاص . . . فشعرت أننى استخلصت روحها الحقيقية من وراء قناع التهكم والكبرياء الذى حجبها عنى دهراً طويلا ، وأن حياة جديدة فتحت لنقاهتى الأدبية . . .

ورجعنا إلى « أشبيلية » ، وقد اتخذت ثانية صوتها الساحر وابتسامتها المعنوية . . .

ولكن هذا لم يزعجنى ، لأن المرأة كالحرّة لمن يتعهدها ... ولقد عنيت بها العناية كلها ، وكنت سعيداً بأن تمكننى من ذلك . . واستطعت إقناع النفس بأن طريقها كان دائماً متجهاً نحوى ، وأنها التى تقدمت إلىّ أولا . . . وراحت تفتننى شيئاً فشيئاً ، وإذا كانت قد هربت فلا مجال للظن السيء بأنها فعلت ذلك لدواع خسيسة ، وإنما الذنب ذنبى وحدى ، لأننى حنثت بعهدى ! . . . وقد عذرتها على رقصها الشائن زاعماً أنها قد ضاع أملها فى أن تحقق معى حلمها . . . ولا تستطيع العذراء فى « قادس » أن تعيش من دون أن

تتخذ على الأقل مظاهر بنات الهوى ! .

أما بعد ، فما عسى أن أقول لك ؟ إنى كنت أحبها ! ...

وفى يوم عودتنا إلى « أشبيلية » اخترت لها داراً فى حىٍّ ساكن ، يكاد يكون فى الصيف قفراً ، ولكنه رطب وارف الظلال . وكنت أراها سعيدة فى هذا المكان الجميل الواقع إلى جوار الحى الذى كان يلتقى فيه « دون چوزيه » بعشيقته « كارمن » الشهيرة ! . وكنت أريد الإسراع فى تأثيث البيت ، وهى تزينه وتزخرفه كما تميل بها مئات النزوات ... ومضى أسبوع وكأننا نحضّر للزفاف ! ... واستأذن الحنو على قلب « كونشا » شيئاً ما ، وهى وإن كانت قد تمنّعت فقد فعلت فى لطف ، كأنها لا تنسى ما قطعته على نفسها من العهود ... ولم أتشدد معها فى ذلك !

ولما جاء يوم تحديد المهر تذكرت احتشامها يوم سبق الكلام على هذا الرهن لثبات المستقبل ، فخفت أن لا أحسن الرد على هذا ، فأجزلت لها العطاء ، ونفحتها مائة ألف « دورو » ، فقبلتها كما تقبل درهماً صغيراً ! ...

وأتى آخر الأسبوع ، فضقت ذرعاً ، وما أظن خطيباً اشتاق مثلي بحرارة إلى ليلة العرس ! ... ولم أعد منذئذ أخشى رجوعها إلى تجنيها ودلالها السابقين ، فقد كانت لى ،

وقرأت هذا فيها . . . وأمنت على اشتياقها الخاص لحياة سعيدة ، بلا عتاب ولا ملامة ! . . .

فكان الحب الطليق والهناء ينتظراننا لسنين طويلة ، فى هذه الدار ، دار العرس البيضاء . . . أما هذا الهناء فستعلمن نبأه بعد حين ! . . .

وأرادت بنزوة منها ، أعجبتنى ، أن تدخل الدار قبلى ، وتنتظرنى ، حتى أدخل عليها ، فى منتصف الليل ، كزائر خفى مستهام . . .

وجئت . . . فوجدت الباب الحديدى الخارجى موصداً بالرتاج ! . فدققت الجرس . وبعد بضع دقائق نزلت « كونشا » ، وابتسمت لى ، وهى فى ثوب وردى ، وشال أصفر ، وقد زانت شعرها بوردتين حمراوين كبيرتين . . .

فرأيت على نور الليل كل تقاطيعها . . .

واقتربت من القضبان ، دائمة الابتسام ، بلا عجلة ... وقالت :

— قبّل يدى ! . . .

والقضبان ما زالت مغلقة . وكان صوتها رناناً وقد عادت تقول :

— قبّل أيضاً طرف ثوبى ، وأخمص قدمى فى شبشبها ! . . .

ثم قالت :

— أحسنت ! . . . والآن فاذهب ! . . .

فسال على صدغى عرق الرعب . . . وخيّل إلىّ أنى حزرت كل ما ستقوله وتفعله :

— كونشيتا ، يا بنيتى ، أنت مازحة ، قولى إنك تمزحين ! .

— نعم ! . . . إنى أضحك ! . أضحك من كل قلبى ! . أفأنت مسرور ؟ . . . واسمع ، اسمع ، كيف أجيد الضحك ! ها ها ! . . . إنى أضحك كمن لم يضحك قط منذ عرفت الأفواه الضحك ! . . . إنى أذوب وأختنق وأنفجر ضحكاً ! . . . ولم يرنى أحد فى مثل هذا الحبور ! . إنى أضحك كما لو كنت ثملة ! انظر إلىّ جيداً يا ماتيو ، انظر إلىّ ، لله ما أشد فرحى ! . . .

ورفعت ذراعيها ، وضربت بأصابعها فى حركة راقصة :

— إنى حرة ! . حرة منك ! حرة طوال حياتى ! . . . سيدة جسمى ودمى ! . آه ! . . . لا تحاول الدخول ، فالقضبان صلبة قوية ! . ولكن امكث قليلا ! . فما كنت أكون سعيدة إذا لم أبح لك بكل ما يثقل قلبى !

وتقدمت قليلا ، ثم خاطبتنى عن كثب ، ورأسها فى أظافرها ، بلهجة وحشية :

— ماتيو ! . إنى أشمئز منك ! . إنى لا أجد الكفاية

من الكلمات لأقول لك كم أمقتك ! . . . ولو أنك كنت مغطى بالقروح والأقذار والديدان لما نفر جلدى من جلدك كما ينفر الآن ! . انتهى كل شيء ! . وقد كان من مشيئة الله أننى منذ أربعة عشر شهراً أهرب من حيث تكون ، وأنت تعود فتأخذنى ، وتلمسنى بيديك ، وتضغطنى بين ذراعيك ، وفمك يبحث عنى . . . ولن تعرف أبداً ما كنت أشعر به حين تدخل فراشى ! . أواه ! . . . لشد ما كرهتك واجتويتك ! . لشد ما لعنتك فى صلاتى لله ! . . . فتناولت القربان منذ الشتاء الماضى سبع مرات ، لتموت غداة خرابك على يدى . . . فلتكن إرادة الله ! . . . وإنى لا أكترث ولا أحمل هم شيء . . . إنى حرة ! . . . فاذهب يا ماتيو ! . لقد قلت كل شيء ! .

فبقيتُ بلا حراك ، كالحجر ! . . . فكررتْ قولها :

— إليك عنى ! . . . ألم تفهم ؟

فلما بقيتُ فى مكانى لا أستطيع كلاماً ، ولا مشياً ، وقد جفّ لسانى ، وتثلجت ساقاى ، اتجهتْ إلى السلم ، وسطع فى عينيها سُعار ، وصرخت :

— أفلا تريد الانصراف ؟ . . . أفلا تريد الانصراف ؟. حسناً ! . سترى ! . . .

وفى نداء ظافر صاحت :

ـ مورنيتو . . . أيها الأسمر الصغير السن ! . . .

فارتجفت ذراعاى حتّى لقد اهتزت قضبان الحديد عند قبضة يدىّ المائتتين !

وكان هناك . . . فرأيته نازلا . . .

وألقت عن كتفيها شالها ، وفتحت له ذراعيها العاريتين :

ـ ها هو ذا عشيقى ! . انظر . . . ما أجمله ! . وما أنضر عوده ! . ماتيو ! . . . انظر إلىّ جيداً ! . إنى أعبده ! . . . لشد ما أشعر بأنى به هائمة ! . . .

وقالت له غير ذلك . . .

وأخيراً ، وقد أحست بأن ما تراه من عذابى لم يكن كافياً ، ولم يبلغ أشده . . . فـ . . . فـ . . . لا أستطيع أن أقول يا سيدى . . . فاحتضنته ، وذابت فى أحضانه ، تحت عينىّ . . . عند قدمىّ . . .

وما زال فى أذنى دوىّ مثل دوىّ الاحتضار ، وخلجات الغبطة التى كان يرتعش منها فمها ، فى حين أن فمى كان يقطر مرًّا . . . و . . . ورنين صوتها حينما صاحت مرة أخرى ، وهى تصعد مع عشيقها :

ـ «القيثارة قيثارتى ، أعزف عليها لمن يعجبنى» ! . . .

١٣

وإذا كنت لم أقتل نفسى عند عودتى إلى بيتى فهذا راجع بلا شك إلى أن فوق كيانى الممزّق سخطاً أشد من الموت يسندنى ويرشدنى !

وكنت عاجزاً عن النوم ، بل لا أكاد أجد إلى الرقاد سبيلا !.. وطلع النهار وأنا أتمشى حائراً بين النوافذ والأبواب. . . ولما مررت أمام المرآة لاحظت ، غير مندهش ، أن شعرى قد اغبرّ لونه !

وفى الصباح قدموا لى طعام الفطور على خوان فى الحديقة . . . وبقيت عشر دقائق بلا جوع ، ولا ألم ، ولا فكر ، حتى رأيت شبحاً يدنو فى آخر الممشى ، كأنه آت من أقصى حلم عميق ، فتبينته ، فإذا به «كونشا» . . .

أوّاه ! . لا تعجب ، فلا شىء غير منتظر منها ! . إن فعالها دائماً تصيب الهدف ، وتحدث الدوار ، وتنطوى على الخباثة ! . فلما جعلتْ تدنو منى ساءلت نفسى مضطرباً : «ترى ، أى جشع يدفعها إلىّ ؟ . أيكون اشتهاء رؤية انتصارها علىّ مرة أخرى ؟ أم الشعور بأنها ، بحيلة

جريئة ، تكمل لفائدتها خرابى المادى ؟ !

وكلا التفسيرين معقول . . .

ومالت جانباً لتمر تحت فرع شجرة ، وطوت مظلتها ، ومروحتها . ثم جلست قبالتى ، ووضعت يمناها على الخوان

فذكرتُ أن وراءها ربوة ، وأن وراء الربوة فأساً لامعة ماضية مغروسة فى الأرض . . . وعلى مدى السكوت كنت نهب إغراءات تدفعنى إلى أخذ هذه الفأس ، وإلقاء المرأة على العشب ، وقطعها شطرين ، كدودة حمراء . . . .

— أتيتُ لأعرف كيف قضيت نحبك ! . وكنت أعتقد أنك تحبنى أكثر من ذلك ، فتقتل نفسك ليلا . . .

ثم صبتْ الشوكولاتة فى فنجانى الفارغ ، وغمست شفتيها المتحركتين ، وأضافت وكأنها تحدث نفسها :

— إنها غير ناضجة ، ما أردأها ! . . .

ولما أتمت فنجانها وقفت ، وفتحت مظلتها ، وقالت :

— فلندخل ! . إنى أحمل لك مفاجأة !

فلم أنبس . . . ولكنى قلت فى نفسى : « وأنا أيضاً ! »

وصعدنا سلم الشرفة . . . وكانت تجرى أمامى ، وتغنى ، متمهلة ، لتفهمنى ما ترمى إليه :

« إذا كان لم يبعث فى الاشتهاء:
فكيف كنت أعطيه ذراعى ،
ونحن فى طريقنا إلى ملعب الثيران ،
حاملين الزهور ؟ . . . »

ثم دخلتْ من تلقاء نفسها إلى الغرفة ، ولست أنا يا سيدى الذى دفعها إليها ، ولم يكن ما حدث بعد ذلك صادراً عن إرادتى :

وكذلك كان قدرنا . . . وإنه لقضاء محتوم !

وكانت الغرفة التى دخلتها صغيرة ، وسآخذك إليها بعد قليل ، وكانت مخنوقة بالسجاجيد والطنافس ، صامتة ، مظلمة ، كالقبر ، وليست بها أرائك مفروشة أو مبثوثة . . . وكنت فيما مضى أدخن فيها ، ثم هجرتها . . .

فدخلتها وراءها ، وأغلقت الباب بالمفتاح ، دون أن تسمع الصرير ! . وإذا بموجة من الدم تصعد إلى عينىّ ، وتجمع سخط راكمته الأيام ، يوماً فيوماً ، منذ أربعة عشر شهراً . . . فواجهتها ، وصرعتها بصفعة واحدة ! . . .

ــ أنت ! . . . أنت ! . . . يا ماتيو ! . . . تفعل بى هكذا ؟ . .

وفى وسط سباب عنيف ، صاحت :

— اطمئن ! . فلن تمسنى مرتين ! . .

وفتشتُ فى جوربها ، حيث يضع بعض النساء سلاحاً صغيراً .. فلويت يدها ، ورميت السكين جانباً ، ثم قهرتها على الجثو ، وأنا قابض بيدى اليسرى على رسغيها ، وقلت لها :

— إنك لن تسمعى منى يا « كونشا » سباباً ولا تعنيفاً . . . ولكن أصغى إلىّ جيداً ! . إنك عذبتنى عذاباً فوق الطاقة البشرية ، وقد ابتدعت وسائل إيلام معنوية لتجريبها فى الرجل الوحيد الذى عشقك عشقاً مبرّحاً . . . فاعلمى أنى سأنتصر هنا ، وأملك منك عنوة ما طاب لى . . . قبلما يجن الليل . . . أتسمعيننى ؟

— لا . . . لا . . . لا لن أكون لك ! . إنك تثير اشمئزازى . . . وقد قلت لك ذلك . . . وإنى لأمقتك كما أمقت الموت ، وأكثر منه ! . فانحرنى إذن قبل أن تملكنى ! . . .

وعندئذ طفقت أضربها صامتاً . . . وكنتُ قد جننت حقاً . . . وما أذكر ماذا جرى . . . وكانت عيناى قد عشى بصرهما . . . وعقلى لا يكاد يدرك . . . ولا أذكر إلا أننى كنت أضربها ضرباً منظماً فى موضع واحد من رأسها وكتفها اليسرى . . . ولم يطرق سمعى قط مثل صراخها الفظيع . . . ولعل ذلك قد استمر ربع ساعة ! . . . فلم تفه بكلمة

طلباً للصفح أو الاستسلام ! .

وتوقفتُ عند ما زاد ألم قبضتى ثم تركت يديها ! . فوقعتْ جانباً ، وذراعاها ممتدتان أمامها ، ورأسها منكس إلى الخلف ، وشعرها مهدل ، وانقلب صياحها فجأة فصار كأنه صراخ بنت صغيرة ، على نغمة واحدة ، تطيل بكاءها بقدر استطاعتها ، دون أن تتنفس !.

وكنت أحسبها فى بعض اللحظات تختنق ، ورأيتُ كذلك الحركة التى تصدر عن كتفها الجريح ، ويداها فى شعرها تنزع الدبابيس ! . . .

وعندئذ رثيت لها ، حتى إننى خجلت من نفسى ، وكدت أنسى ما جرى منها بالأمس من مشهد مروع . . .

واعتدلت «كونشا» قليلا ، وما زالت جاثية ، ويداها على صدغيها ، رافعة بصرها إلىّ ، وكأنما لم يعد فى عينيها أثر للعتب ! . لا أدرى كيف أقول . . . بل صار فيهما معنى العبادة ! . وكانت شفتاها بادئاً ترتعشان حتى لا يمكنها أن تحركهما بكلمة . . .

ثم استبنتُ أنها تقول لى :

ــ آه يا ماتيو ! . . . لشد ما تهوانى ! . . .

وزحفت على ركبتيها نحوى ، وتمتمت :

— صفحاً يا ماتيو وغفراناً ! . . . فإنى أيضاً أحبك . . .
ولأول مرة كانت صادقة ! . . . بيد أنى لم أعد أصدِّقها ! . . .

وأردفتْ :

— ما أحسن ضربك ! . وما أحلاه ! . . . عفواً عن كل ما فعلتهُ فيك . . . كنت مجنونة . . . كنت غير عارفة . . . لقد تألمتَ كثيراً من أجلى؟! عفواً !. عفواً !.عفواً!. يا ماتيو !.

وقالت لى أيضاً بذلك الصوت الرخيم :

— إنك لن تأخذنى قهراً : . . فإنى أنتظرك . . . فساعدنى على النهوض . . . قلت لك إننى محتفظة لك بمفاجأة . . . وستراها لساعتك . . . ستراها . فإنى ما زلت بكراً . . . وما مشهد البارحة إلا مهزلة أردت بها أن أولمك . . . ويمكننى الآن أن أقول لك إنى ما أحببتك قبل اليوم ! . ولكنى من الكبرياء بحيث لا أعشق أمثال « المورنيتو » ، ذلك الأسمر الصغير السن . . . إنى لك يا ماتيو . إنى سأكون امرأتك هذا الصباح ، إن شاء الله . . . فلتحاول نسيان الماضى ، وأن تفهم نفسى الصغيرة المسكينة . . . فإنى أضلُّ فى معرفتها . . . وأظننى الآن أستيقظ . . . وأرى فيك إنساناً لم أره قبل اليوم ! . . . تعال إلىّ ! . . .

وحقيقة ، يا سيدى ، لقد كانت بكراً . . .

١٤

إن هذا ليكوّن للقصة ختامها ! . وكل ما ينتهى هكذا يكون خيراً . . . وا أسفاه ! . . . ليتنى أقف هنا ! . . . وقد تعرف يوماً ما أن الشقاء لا ينمحى بتاتاً على مرور الأيام . . . فالقرحة لا تشفى ، ويد المرأة التى بذرت الهموم والدموع لا يمكن أبداً أن تغرس الفرح وتتعهده فى ذات الحقل الممزق . . .

فبعد ثمانية أيام من ذلك الصباح — أقول ثمانية أيام ، وهذا لم يطل — عادت « كونشا » مساء ، فى يوم أحد ، فقالت لى قبل العشاء ببضع دقائق :

— احزر من رأيت ؟ . . . إنه شخص أحبه كثيراً . . . فابحث قليلا . . لقد سررت . . .

فسكتُ . . . فعادت تقول :

— رأيت « المورنيتو » الأسمر الصغير السن . . . وكان ماراً أمام دكان « جاسكيه » ، فذهبنا معاً إلى « سرفشيرا » . . . وقد سبق أن ذكرته لك بالسوء ، ولكننى لم أقل كل ما فى فكرى . . . إنه جميل ، حبيبى « القادسى » الصغير . . .

وأنتَ قد رأيته ، وتعلم جيداً أن له عينين براقتين ، وأهداباً طويلة . . . إنى أعبد الأهداب الطويلة ، فما أشد ما تجعل النظر عميقاً . . . ثم إنه ليس له شارب ، وفمه مقسَّم ، وأسنانه بيضاء . . . والنساء جميعاً يسيل لعابهن عند رؤيته هكذا ظريفاً !

ـــ إنك تمزحين يا كونشيتا . . . فهذا مستحيل . . . لأنك لم تلقى أحداً . . . قولى ! .

ـــ آه ! . . . أفلا تصدقنى ؟ . . . كما تشاء . . . ولن أقول لك ما وقع بعد . . .

فقبضتُ على ذراعها وصحت بها :

ـــ قولى لى حالا ! . . .

ـــ لاتهيج ! . . . سأقول لك . . . ولن أخفى ما فعلته ! . . إنها مسرتى . . . وإنى لحريصة عليها . . . فقد ذهبنا معاً إلى خارج المدينة ، فى طريق منير . . . منير . . . منير . . . أتريد أن أتم كلامى ؟ . . . لقد زرنا فندق «كروس دلكمبو» . وُطفنا بغرفه كلها ، واخترنا منها أجملها ديواناً . . .

ولما رأتنى أهم بضربها مضت فى كلامها وهى تحمى نفسها بيديها :

ـــ هذا طبيعى ، فبشرته ناعمة ، وهو يفوقك فتنة وجمالا . . .

ماذا تريد يا سيدى منى ؟ . لقد ضربتها ثانية ، بوحشية ، بيد جامدة ، بطريقة تقززت نفسى منها . . . فصاحت ، وبكت ، وشهقت ، وجثت فى ركن ، ورأسها على ركبتيها ، ويداها ملتويتان . . .

ثم لما استطاعت النطق قالت وصوتها يغص بالعبرات :

ـ يا قلبي ! . . . ليس هذا صحيحاً . . . فقد ذهبت إلى « طوروس » لرؤية مصارعة الثيران ، وقضيت هناك النهار طولا . . . وتذكرتى فى جيبى . . . فخذها ! . . . وكنت وحدى فى صحبة صديقك « ج . . . » وزوجته . . . وقد خاطبانى ، ويمكنهما أن يشهدا لديك بذلك . . . وحضرت مصرع ستة ثيران ، دون أن أغادر مكانى ، ثم عدت من الملعب رأساً . . .

ـ ولكن لماذا قلت لى . . . ؟

ـ لتضربنى يا ماتيو ! . فإنى إذ أحس قوتك أحبك . . أحبك ! . . . ولا يمكنك أن تدرك مبلغ سعادتى عند البكاء بسببك ! . فتعال الآن ... فى قربك شفائى ! .

واستمر هذا ، يا سيدى ، إلى النهاية ! . . .

ولما اقتنعتْ بأن اعترافاتها الكاذبة لم تعد تخدعنى ، وأنه كانت لدى كل الأسباب التى تحملنى على الثقة

بإخلاصها ، ابتكرت أسباباً جديدة لتثير كل يوم سخطى . . .
وفى المساء ، فى الموقف الذى تقول فيه النساء جميعاً :
« أتحبنى طويلا ؟ » كنت أسمع أنا الجمل المدهشة على
حقيقتها : « ماتيو ! . أتضربنى جيداً ! . . . أتقتلنى ! . . .
قل لى إنك ستقتلنى ! »

لا تعتقد مع ذلك أن ميلها الشاذ الغريب هذا كان أساس
طبعها . كلا ، فإذا كان يعوزها العقاب فإنها كانت أيضاً
تحب الذنب ! . كانت ترتكب الشر لا للذة الخطيئة ولكن
للذة إيلام إنسان ! . وكان دورها فى الحياة محدوداً : أن
تبذر الألم ، ثم تنظر إليه وهو ينمو ويتكاثر . . .

وفى البداءة أظهرتْ غيرة من أصحابى ، ومن كل من
حولى ، وكانت غيرة لا يتصورها عقل . . . وقد عاملتهم
بقحة ، حتى قطعت علاقاتى بهم جميعاً وبقيت وحيداً ! .
وكان منظر امرأة ، كائنة من كانت ، يثير سخطها ! .
وطردت خادماتى كلهن على تأكدها من أننى لا أبادلهن كلمة .
ثم طردت أيضاً اللواتى انتخبتهن بنفسها ! . واضطررت أن
أغير كل من أعاملهم ، لأن امرأة الحلاق كانت شقراء ،
وابنة الكتبى سمراء ، وبائعة السجائر تسأل عند دخولى حانوتها
عن صحتى . . . وبعد زمن يسير كففت عن الظهور فى

دور التمثيل ، لأنى — كدعواها — إذا نظرت إلى الصالة فلكى أشبع عينى من جمال امرأة ، وإذا نظرت إلى المسرح فلأنى واقع فى هوى ممثلة ! . . .

ولهذه الأسباب بعينها امتنعت عن الخروج معها إلى التنزه ، لأن أقل تحية توجه إلىّ كانتْ تعدها اعتراف حب ! . . . وما كنت لأستطيع تقليب صور ، أو قراءة قصة ، أو النظر إلى تمثال العذراء ، لأنها كانت تتهمنى بالحنان إلى صاحبة الصورة ، أو بطلة القصة ، أو مثال التمثال ! . . .

وكنت أخضع دائماً مدفوعاً بقوة حبى ، وكانت فى بادئ الأمر تذكى نار غيرتى بوسائل مفتعلة ، وأباطيل مصطنعة ، ثم انتهت إلى أن جعلتها حقيقة واقعة . . . فخانتنى ، وعنيتْ بأن أعرف خياناتها ، إثارة لشعورى ، أكثر منها رغبة فى الفجور ! . وبعد ذلك لم تكتف بالقول برهاناً على الخيانة ، بل صممت على إعادة مشهد البوابة الحديدية ، بلا اختلاق ، فأعدّتْ أسباب ذلك بحيث أتمكن من ضبطها متلبسة بالإثم !

وكان ذلك صباح يوم استيقظت فيه متأخراً ، فلم أجدها بجانبى ، وكان على المنضدة خطاب فيه هذه السطور :

« ماتيو.. يا من لم تعد تحبنى !.. إننى استيقظت أثناء نومك ، وذهبت لمقابلة عشيق فى فندق « . . . » فى الغرفة رقم ٦ . . وتستطيع أن تقتلنى هناك إذا أردت . فسأترك القفل مفتوحاً ، وسأطيل ليل الهوى حتى الضحى !. فتعال إذن ، فقد يكون من حظى أن ترانى فى ضمة غرام . . . إنى أعبدك ! . . . كونشا »

فذهبت . . . ويا لها من ساعة يا إلهى ! . . .

وتبعت ذلك مبارزة ، وكانت فضيحة عامة ، لعلها بلغتْ مسامعك !.

وحين أفكر فى أن هذا كله قد عملته « لتربطنى بها » أتساءل: « إلى أى حد يمكن مخيلة المرأة أن تعميها عن حقيقة حب الرجل ؟ »

وظل ما رأيته فى غرفة الفندق حجاباً مسدلا أبداً بينى وبينها . . . فبدلا من أن يُلهب هيامى بها ، كما كان أملها ، وضع هذا المشهد الفاضح على جسمها شيئاً كالغشاوة البغيضة لا يمحى !

وقد رددتها إلىّ ، لكن حبى ظل مهشما جريحاً ! . .

وزاد شجارنا ، واشتد عنفاً ووحشية . وكانت تتعلق بحياتى بغِلّ وسُعار !. وهذا محض أنانية منها وأثرة شخصية !.

وما كانت نفسها الشريرة تظن أن هناك طريقة للحب غير هذه!

وكانت تسعى إلى ضمى بين ذراعيها بأى ثمن ، وبأية وسيلة !. ولكنى هربت منها أخيراً . . وتمّ لى ذلك فجأة إثر إحدى حوادثها المنكرة المتكررة ، إذ أصبح ذلك فرضاً لزاماً !.

فقد حدث يوماً أن صعدتْ إلىّ من سلم الحديقة فتاة نورية ، لتعرض علىّ بضاعتها من سلال الخيزران . . . وهممت أن أحسن إليها ، فإذا « بكونشا » تندفع إلينا غاضبة ، فأشبعتها شتائم مقذعة ، واتهمتها بأنها آتية لتعرض بضاعة أخرى ، وأن عينيها تنمان عن صناعتها الحقيقية ! . . . وأنها تسير حافية القدمين لتعرض ساقيها ! . . . وأنها بلا حياء تتسكع من بيت إلى بيت ، ممزقة الثوب ، لتتصيد العشاق ! . . .

وأخذت تقذف شتائمها هذه بصوت منكر ، ثم انتزعت منها سلالها ، وحطمتها تحت قدميها ! .

وإنى أترك لخيالك عويل الفتاة الصغيرة المسكينة ورعشتها وفزعها... وقد ترضّيت البائعة طبعاً !

وليست هذه المعركة أنكى المعارك أو أشنعها ، أو أدعاها إلى الضيق والضجر ، ولكنها كانت الأخيرة . . . ولا أدرى إلى الآن ما السبب ! . . .

— أتتركنى لتتبع نورية ؟ !

— كلا ! . بل أتركك حباً فى السلام ...

* * *

وبعد ثلاثة أيام وصلتُ إلى « طنجة » ، فلحقتْ بى هناك ! . فتوغلت مع قافلة حيث لا يمكنها ملاحقتى ! . وانقطعت عنى أخبار أسبانيا بضعة أشهر ... ولما عدت إلى « طنجة » وجدت بانتظارى أربع عشرة رسالة منها ... فأبحرت إلى إيطاليا ... فوصلتنى تسع رسائل أخرى ... ثم ساد الصمت ...

ولم أرجع إلى « أشبيلية » إلا بعد سنة من رحيلى ... فكانت قد تزوجت منذ خمسة عشر يوماً بشاب نزق ، من أسرة طيبة ، فبعثت به إلى « بوليفيا » بسرعة ذات معنى ... وكانت قد أبلغتنى ذلك فى كتابها الأخير :

« سأكون لك وحدك أو لمن يريدنى ... »

وأظنها الآن تبر بوعدها الثانى ...

لقد قلتُ لك يا سيدى كل شىء ... فأنت تعرف الآن إذن من هى « كونسبسيون پريز » !

أما أنا فقد حطمت حياتى ، لأننى لقيتها فى طريق ، ولست أرجو منها غير النسيان ! ... على أن التجربة القاسية التى اكتسبتها بكل عناء تحتم علىّ أن أمدّ بها غيرى فى

حالة الخطر . . . فلا تعجب إذا قطعت على نفسى عهداً أن أقص عليك حديثها ! . وقد مات أمس عيد المساخر ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعى . . . وهأنذا قد كشفت لك برهةً من الدهر قناع امرأة مجهولة !

* * *

فنهض « أندريه » ، وقال برصانة ، وهو يضغط على كلتا يديه :

— شكراً لك ! . . .

١٥

عاد أندريه إلى المدينة سيراً على القدمين ، وكانت الساعة السابعة مساء ، والأرض تنطف عطراً ، إذ تبدل تربتها ، من حيث لا تدرى ، تربة أخرى ، تحت ضوء البدر الساحر . . .

ولكيلا يعود فى الطريق نفسه ، أو لسبب خفى ، اتخذ طريق « أمبلم » الموعود . . . بعد دورة طويلة فى الخلاء . . .

وكانت رياح الجنوب تثيره بحرارتها التى لا تنضب ، والتى كانت ، فى تلك الساعة الأولى من الليل ، أشد ما تكون إثارة وفتنة . . .

ولما وقف ، يكاد يكون مغمض العينين ، ليستوعب لذّات الطبيعة الطريفة ، مرتجفاً من نشوتها ، مرّت به عربة ، ووقفت أمامه بغتة . . .

فتقدم . . . فسمع صوتاً يهمس :

ـــ لقد تأخرتُ قليلا ، ولكنك من اللطف بحيث انتظرتنى . . . أيها المجهول الجميل الذى يجتذبنى ! . أينبغى لى أن أطمئن إليك ، فى هذا الطريق المقفر المظلم ؟ . . .

آه ! . رباه ! ... فأنت ترى رأىَ العين أننى أشد ما أكون هذه الليلة زهداً فى الموت ! ...

فألقى « أندريه » عليها نظرة من يرى فيها قدَراً مكتوباً ، ومصيراً محتوماً ... ثم شحب وجهه فجأة وهو يتخذ مكانه إلى جانبها ...

وسارت المركبة فى صميم الريف ، حتى جاءت بيتاً صغيراً أخضر فى ظل ثلاث شجرات من الزيتون ...

وسرحت الجيول ... وقضيا ليلتهما ! ...

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالى عادت بهما العربة إلى « أشبيلية » ، ووقفت أمام رقم ٢٢ بلازا دل تريِنفو « ساحة النصر » ...

ونزلت « كونشا » أولا .. ثم تبعها « أندريه » ... ودخلا معاً ... فقالت « كونشا » للوصيفة :

— روزالى ... أعدى حقائبى وأسرعى ! ... إنى مسافرة إلى باريس ...

— لقد جاء يا سيدتى فى هذا الصباح سيد سأل عنك ، وألحّ كثيراً فى الدخول ، ولم يسبق لى أن رأيته ، ولكنه قال إن سيدتى تعرفه من زمن طويل ، وإنه يكون سعيداً جداً إذا تفضلت سيدتى باستقباله ...

ـ وهل ترك اسمه ؟

ـ كلا يا سيدتى

وعندئذ دخل خادم ، وقدم رسالة ، عرف « أندريه » فيما بعد أن فحواها :

« يا حبيبتى كونشيتا ، إنى أصفح عنك ، ولا أستطيع العيش إلا حينما تكونين . . . فعودى إلىّ ! . . . إننى أنا الآن الذى يتوسل إليك ، جاثياً . . . وإلى أقبل قدميك الحافيتين . . . ماتيو »

فهرس